

افرنالك ٦



أضواء على الحياة

اخترت لك ...

Adwa' ala al-Habashah

أضواء على الحبشة

اشترك في إعداد هذا الكتاب :

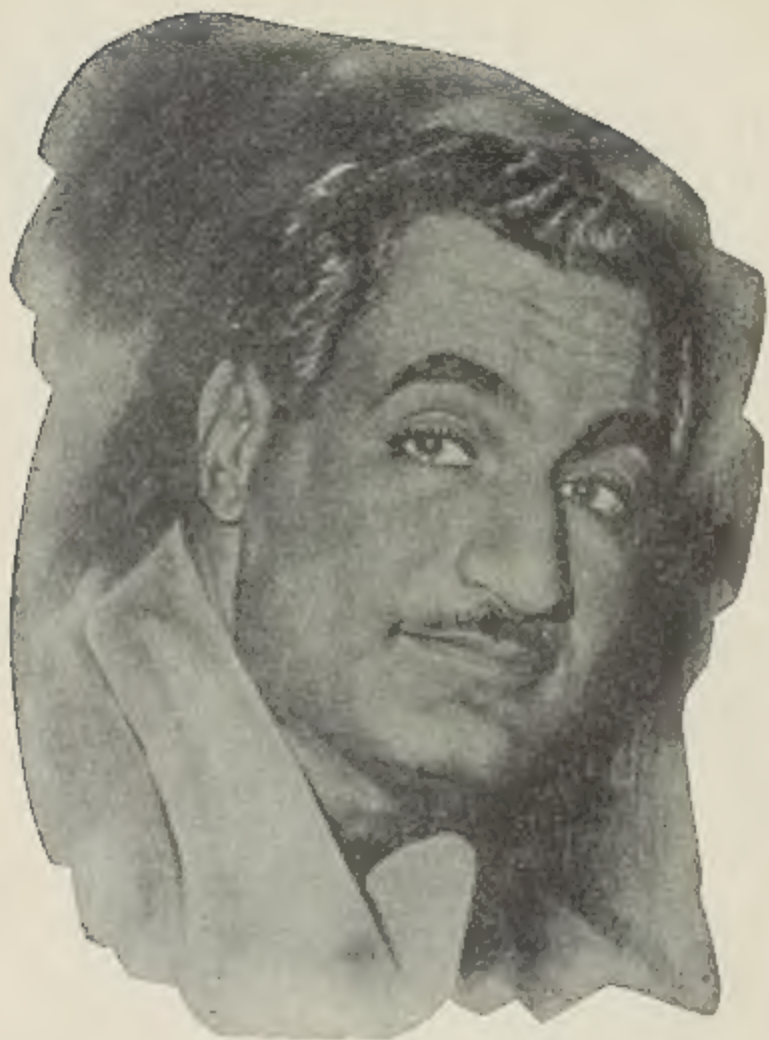
• أمين شاكِر *Amin Shakir*

• سمية المريان

• مصطفى أمين

ملتمن الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



7.28.55 O.L.L.

الرئيس جمال عبد الناصر

أثيوبيا . . . دولة شقيقة !

بقلم

جمال عبدالناصر

إن بيننا وبين الحبشة من علاقات الود الدائم ما لا يكون مثله بين
الأخوين الشقيقين . . .

فتحن والحبشة بلدان متجاوران في قارة ضرب عليها الاستعمار
نطاقه ، لتكون له دون أهلها كالبقرة الحلوب : تدرُّ له من لبنها ما لاتدر
لفصيلها المهزول . . .

ونحن وهى بإزاء ذلك الاستعمار كما يُحكى عن ثيران ثلاثة :
أبيض ، وأحمر ، وأسود ، فى أجمة يتربص بها السبع ، فإذا بدا للأسودها
أو لأحمرها أن يشتري السلامة لنفسه من ظفر السبع بتسليم صاحبيه
أو الإغضاء عما يصيبهما من ظفره ونابه ، فقد أعان على نفسه بهذا
التسليم ، وما أقرب أن يصبح ذات يوم وهو يصيح بين غخاب السبع :
لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض !

ونحن إلى ذلك شريكان فى هذا النهر الخالد الذى يُفيض الخير
والبركة على شاطئيه من هضبة الحبشة إلى القرن من أرض السودان إلى

2274
87511
311

المصب في البحر المتوسط ؛ فكل ذرة من ذرات ذلك الماء المتدفق في مجرى بين المتبع والمصب ، تتناجى هماً بأمانى مشتركة تلتقي عندها عواطف المصريين والسودانيين والأحباش جميعاً . . .

ونحن قبل ذلك كله أو بعد ذلك كله ، مؤمنون بالله على دين واحد ومثل عليا مشتركة ، مسلمونا ومسلمو الحبشة يستحضرون في كل لحظة من لحظات الفكر ذكرى ذلك اليوم البعيد الذي وطئ فيه المهاجرون الأولون من أصحاب محمد بن عبد الله بساط النجاشي لاثنيين به من كيد المشركين في مكة ، فأواهم وأمنهم وأفاض عليهم من برة ، وأثنى عليهم وعلى نبيهم خيراً ، والمسيحيون منا كسبيحي الحبشة ، على مذهب واحد في الدين ، يعبدون الله عليه ، ويتداعون إلى نصرته ، وتخفق قلوبهم بمعانيه ، ويقفون في سبيله صففاً يتلقون بركات المطران الذي يرسمه بطريرك الإسكندرية . . .

هذه الصلات العميقة الجذور في قلوب المصريين وأهل الحبشة — وليست هي كل ما بيننا وبينهم من صلات — تُشعرنا وتشعرهم جميعاً ، بما بيننا من أواصر وثيقة لا يفصم عروتها الزمان . . .

على أن الاستعمار الباغى لا يريد أن يرى شعبين في هذا الركن من العالم يعيشان على مودة ووثام . . .

أحسن المستعمر الصليبي بهذا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فراح يلتمس أسبابه ليحمل الحبشة باسم الصليب على الانضمام إلى معسكره ، فباء بالخيبة والخذلان . . .

وأحسه المستعمر البرتغالي في القرن الخامس عشر، فراح يسعى صعيه ليوقع بين المسلمين هنا والمسيحيين هنالك، لعله أن يجد من وراء ذلك سيلاً لتثبيت قدمه في أرض الحبشة ليتخذها قاعدة للتوسع والاستغلال في القارة العذراء؛ فباء كذلك بالخيبة والخذلان...

وأحسه المستعمر البريطاني والفرنسي والإيطالي في القرن التاسع عشر، فأخذ باسم المسيحية يحاول محاولة أخرى يقطع بها أوصالاً وينشئ علاقات ليفصم علاقات؛ ولكن حيلته لم تلبث أن انكشفت لكل ذي عينين، فردّه الأحباش على أعقابها كذلك بالخيبة والخذلان...
وأحسه الأمريكي الحديث، فأخذ ينسج أحبولة أخرى ليوقع فيها فريسة أو فرائس...

...

هذه المحاولات الاستعمارية المتعاقبة منذ قرون بعيدة للإيقاع بالحبشة وما حولها من بلاد أفريقية، قد أنشأت في قلوب الأحباش إحساساً وأنضجت في عقولهم وعياً وعلّمتهم الحرص والحذر وسوء الظن بكل ما يأتي من وراء البحار، ولم يكونوا من القوة الحربية بحيث يأمنون غارة سافرة يشنها الاستعمار على بلادهم بعد أن عجز عن أخذهم بالختل والحيلة، ففرضوا على أنفسهم نوعاً من العزلة تقيهم شر الاستعمار وغوائل المستعمرين، فانقطعوا بهذه العزلة عن العالم زماناً، لا يكاد أحدٌ يذكرهم أو يعرف من حقائق الحياة عن بلادهم شيئاً، واستوى في الجهل بهم البعداء عنهم من ذوي المطامع الاستعمارية، والأقارب من ذوي

الحوار والأخوة العاطفة ؛ فلولا الغارة التي شنها موسليني على بلادهم منذ
عشرين سنة ، لظلوا غرباء عن مضطرب الحياة العامة في العالم الحديث . . .
وصدق من قال : « رب ضارة نافعة » ، فإن هذه الغارة الإيطالية
- وقد انتهت إلى ما انتهت إليه واستردت الحبشة حريتها - قد جعلت
اسم الحبشة مذكوراً على الألسنة بعد أن طال عليها النسيان . . .
على أن الحبشة - وإن كان اسمها اليوم دائراً على الألسنة - لم يزل
كثير من حقائق حياتها وأسباب العلم بها بعيداً عن فكر المفكرين من
أهل الشرق ومن أهل الغرب جميعاً ، وعنا نحن جيرانها الأقربين ، من غير
تقصير منا بحق الحوار والأخوة . . .

لقد ظللنا حيناً - لظروف خارجة عن إرادتنا - بعيدين عن تتبع
تطورات الحياة العامة في الإمبراطورية الحبشية ، جارتنا وشقيقتنا ؛ لأن
السياسة التي كان يفرضها الاستعمار على بلادنا منذ بعيد ، كانت
تحول بيننا وبين تأكيد أسباب التعارف وتوثيق أواصر الحوار ؛ أما
اليوم وقد صارت أمورنا بأيدينا ، فقد وجب علينا أن نتوجه بأبصارنا وقلوبنا
إلى ما حولنا ، وأن نلقى « أضواء على الحبشة » تكشف للقراء العرب
والأفريقيين عن بعض ما يجهلون من الحقائق العامة عن ذلك القطر
الشقيق ، ليكون لهم من العلم بها سبب إلى توثيق علاقات الإخاء والمودة
بيننا وبين الشعب الذي تربطنا به أوثق الصلات منذ أبعد أعماق
التاريخ . . .

بالحبشة

هضبة الحبشة

تقع بلاد الأحباش على هضبة صخرية مترامية الأطراف بين وادى أعالى النيل وسهول الصومال ، حدها الشرق واضح المعالم ، فهو سلسلة جبال تبدأ من نقطة تبعد نحو ١٦٠ كيلومتراً إلى الجنوب من سواكن ، وتمتد بمحاذاة ساحل البحر الأحمر على مسافة ثلاثمئة كيلومتر إلى مصوع ، ثم تنحرف نحو الجنوب حتى تصل إلى منطقة أديس أبابا ، وهذا الحائط الجبل الذى لا يتجاوز فى الناحية الغربية مستوى علو الهضبة ذاتها ، ينحدر فى الناحية الشرقية إلى عمق يتراوح بين ألفى متر وألفين وخمسمائة متر إلى البحر وإلى سهول دنكالى ، أما الحدود الجنوبية من منطقة أديس أبابا فتمتد متعرجة إلى بحيرة رودلف .

وتحمل هذه الهضبة الصخرية العالية فوق ظهرها كتلة جبلية وعرة ، تشمل فيما تشمل منطقة بلاد (آروسي) ، التى تخرج منها جبال هرر ، وتمتد إلى الشرق نحو خليج عدن ، وتنحدر نحو سهول الصومال التى تعتبر حدودها الشمالية ، وتبلغ سلسلة الجبال الشرقية على صورة هلال ، ويمس طرفها الشمالى البحر الأحمر ، ويقع طرفها الجنوبى عند بحيرة رودلف ، ثم تنحدر غرباً حيث تنمحي حدودها .

وعلى الرغم من قرب هذه الكتلة الصخرية من خط الاستواء فإن

مناخها معتدل نسبياً إذا قيس بالمناخ الحار الذى يسود منطقة سهول دنكالى التى تجاورها من الشرق ومن الجنوب الشرقى ؛ ولعل هذا هو السبب فى غزارة الأمطار التى تهطل على بلاد الحبشة خلال فصل الصيف ، مما يميز بينها وبين المناطق المجاورة التى قلما تسقط فيها الأمطار ، فيما عدا منطقة أعالي النيل التى لا يقل منسوب سقوط الأمطار عليها عما فى الحبشة ، أما بلاد الدناكل والصومال فتاحلة جرداء ، لا فرق بينها وبين الصحراوات ، كما هو الحال فى بلاد النوبة ، اللهم إلا حيث تلتقى روافد النيل .

وتتحدّر الهضبة الحبشية بصفة عامة نحو الغرب فتسير وديانها وأنهارها فى هذا الاتجاه ، وفيما خلا ذلك لا ينحدر نحو الشرق سوى نهر (أواش) الذى ينبع على مقربة من أديس أبابا ويهبط تدريجياً فى اتجاه خليج عدن دون أن يصل إليه ، إذ يتحول إلى شبه مستنقعات يتكاثر عددها غرب جيبوى . ولا يهبط نحو الجنوب من أنهار الحبشة إلا نهر (أومو) الذى يغذى بمياهه الطامية بحيرة رودلف ، ونهران آخران ينحدران من هضبة (آروسى) إلى الجنوب ولا يصبان فى المحيط الهندى ، بل تضيع مياههما متسربة خلال رمال الصحراء على مقربة من الساحل .

يبد أن الجانب الأكبر من مياه الأمطار الغزيرة التى تهطل على الهضبة الحبشية تتحدّر إلى الجانب الشمالى الغربى نحو نهر النيل ، فتغذيه منها ثلاثة روافد كبيرة : نهر العظيرة فى الشمال ، والسوبات فى الجنوب ، وفيما بينهما نهر آباى الذى ينبع من بحيرة تسانا العميقة ،



الحيمة والصومال

وينحدر أولاً نحو الجنوب الشرقى ، ثم يدور حول الجبال ويهبط نحو الشمال الغربى حيث يسمى بالنيل الأزرق ؛ وقد حفرت مياه هذا النهر مجرى عميقاً وسط الجبال على صورة غير مألوفة للدرجة أن أصبح هذا الأخدود الحقيق حائلاً دون المواصلات الطبيعية بين منطقة (جوجام) والمناطق الرئيسية العالية فى الجنوب ، حيث توجد عاصمة البلاد أديس أبابا ، كما لعب هذا النهر دوراً على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخ الحبشة . ولا شك أن فيضان نهر آباى بالأمطار الغزيرة التى تهطل على الهضبة الحبشية ، هو الذى بسبب فيضان النيل السنوى فى مصر ؛ فلا نزاع فى أن حياة بلادنا تعتمد اعتماداً شديداً على الحبشة ، وهذا أمر يعرفه الشعبان المصرى والحبشى تمام المعرفة منذ زمن بعيد ، وتحكى الأساطير الحبشية التى يتناقلها الأبناء هنالك عن الآباء أن أبائهم تقبض على عنق مصر ؛ وفى تاريخ بطارقة الإسكندرية ما يؤيد هذا القول ؛ فقد جاء فيه أن مصر أصيبت بمجاعة بسبب عدم فيضان النيل عام ١٠٩٣م ، فأوفد خليفة المسلمين بطريق الإسكندرية حاملاً فخر الهدايا وأنذر التحف إلى ملك الأحباش ، فاستقبله الملك استقبالا كريماً ولبى رجاءه ؛ ويقال إن منسوب النيل قد ارتفع فى هذه الليلة ثلاث أذرع . وجاء فى أسطورة حبشية أن أحد الملوك المتأخرين من أسرة (زجوى) أراد أن يصب جام غضبه على (الكافرين) المصريين ، فعهد إلى تحويل روافد النيل نحو المحيط الهندى ، وكان ذلك فى منتصف القرن الثالث عشر ؛ ويقال إن ذلك الملك شرع فى تحويل مجرى ثلاثة

روافد ، ثم مات فمات المشروع . . .

وهي رواية أخرى أن الكهنة ثنوه عن عزمه ، بدعوى أن تحويل مجارى الأنهار إلى المحيط الهندي سيخلق دولة إسلامية أخرى في الصومال لن تلبث أن تثير على شعبه حرباً شعواء وتسلبه عرش أجداده . . .

وفي سنة ١٣٢٥ م اضطهد السلطان الناصر أقباط مصر ، فما كان من ملك الحبشة إلا أن هدد بإنزال المجاعة بشعب مصر وتحويل أراضيها إلى صحراء جرداء إن لم يكف السلطان عن اضطهاد أبناء الطائفة القبطية . . . وقد تكرر هذا الوعيد مرة أخرى في أوائل القرن السادس عشر ، حين اختمرت في رأس الرحالة البرتغالى الكبير (البوكيرك) فكرة تحويل تجارة البندقية التى كانت تمر عبر الأراضي المصرية إلى طريق الكاب الذى كان البرتغاليون يسيطرون عليه وقتذاك ، فبدأ له أن يوعز إلى ملك الحبشة بتحويل مجارى روافد النيل الحبشية ، فلا تلبث مصر أن تصبح صحراء قاحلة تنعق البوم في جنباتها .

وقد بدأ الملك الحبشة منذ عهد قريب أن يقيم على نهر آباى سداً ، عند مخرجه من بحيرة تسانا ، ولم يكن القصد من ذلك حرمان النيل من رافده الرئيسى ، بل ضبط مياه النهر حتى لا يضيع جانب كبير منها في البحر أثناء فيضان النيل ، فتستفيد مصر والسودان مما يحتزن من مياهه أثناء فترة التحريك على صورة منتظمة .

ونعود مرة أخرى لوصف طبيعة الأراضي الحبشية ، فنقول إنها تتكون من هضبة مترامية الأطراف يبلغ ارتفاعها نحو ألف متر ، تعلوها هضبة

أخرى يبلغ ارتفاعها نحو ألف وخمسمائة متر ، في وسطها منخفض بحيرة
تسانا التي ينبع منها عدد من الأنهار الكبيرة والصغيرة تنشق طريقها في
مجار عميقة بحيث تكاد جوانبها تكون رأسية ، وتعتبر هذه المجارى حصوناً
طبيعية ، يكفي للسيطرة عليها والدفاع عنها حفنة من الرجال أمام جيوش
ضخمة ؛ وفي أعالي هذه الأخاديد الطبيعية تكثر المراعى والزروع
والثمار ، فلا خوف على المدافعين من الجوع ؛ وقد لعبت هذه الأخاديد
أدواراً رئيسية في تاريخ الحيشة ، إذ كان العصاة المتمردون على سلطان
الملوك الأحباش يتخذونها أوكاراً يمتنعون فيها فلا تنالهم يد ؛ كما كان
الأحباش يتخذونها معقل يصبون منها نيرانهم على الغزاة الأجانب ؛
أما في أيام السلم فتصبح هذه الأخاديد أدياراً يتعبد فيها النساك ، حتى
إذا جد الجدد مرة أخرى انقلت هذه الأديار وعادت حصوناً تضم بين
جوانبها رجالاً أشداء يذودون عن حياض الوطن !

وكم أودع ملوك الأحباش في هذه المعقل كنوزهم وثرواتهم ،
أو ساقوا إليها المناهضين لسلطانهم ؛ ومن بينها معقل قد اتخذها الملوك
سجناً يضم جميع الذكور من الأسرة الحاكمة ، فيما عدا أبناء النجاشي
الحاكم ؛ ولما كانت المواصلات مقطوعة بين هذا السجن الغريب والعالم
الخارجي ، فقد كان النجاشي يجد الأمان والطمأنينة في سجن الأمراء فيه ،
فلا تعكر صفو حياته دسائس ولا تؤرق جفنيه ثورات ولا مؤامرات ،
إذ يعيش فيه ذكور الأسرة المالكة ويموتون فلا يسمع بهم أحد ولا يصل
إليهم أحد ؛ ومع هذا فلم يكن من الأمور النادرة أن يستدعى أحد

هؤلاء السجناء من أمراء الأسرة المالكة لاعتلاء العرش إذا لم يكن هناك وارث شرعى من الطبقة الأولى !

وفى هذا البلد الذى تكثر فيه هذه الحصون الطبيعية ، وتتخلل أراضيه سلاسل من الجبال الشاهقات الوعرة وآلاف من الأخاديد السحيقة ، قلما تتحقق الوحدة بين عناصر السكان ؛ وكثيراً ما تعذر على الملوك أن يسيطروا سلطانهم على الولايات المتباعدة التى تفصل فيما بينها هذه الحوائل الطبيعية ، وكم من زعيم رفع راية العصيان وشق عصا الطاعة على مليكه ، واعتصم بمغاور الجبال ، وأعوانه يتحكمون فى رؤوس الأخاديد ، فيصعب على السلطات الحاكمة أن تنالهم وتخضعهم لمشيئة ملك الملوك ، وبهذا ظلت العشائر المتمردة على السلطة المركزية محتفظة باستقلالها فترات طويلة ، وانفصمت عرى الوحدة الحبشية فى وقت من الأوقات فقامت فى الحبشة أمارات عدة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، إلى أن وقعت الطامة الكبرى ، وداست أقدام المحتل الأجنبي أرض الوطن ، فشنه الوعي القومى ، وذامت الأحقاد ، فالتف الأمراء حول مليكهم ! ولقد عاش الأحباش طويلاً منقطعين فى داخل بلادهم عن العالم الخارجى ، ولا عجب فسييل اتصالهم بمدينة البحر الأبيض المتوسط قاصر على الموانئ الحبشية فى البحر الأحمر ، وتعتمد رقعة الحبشة فيما وراء ذلك إلى حدود مصر وصحراء النوبة . . .

ومن تلك الموانئ يصدر الأحباش منتجات الأرض الطبيعية ، ومنها الذهب والعاج والفلفل والبهار وبخور الصومال ، والعبيد الذين

يقتنصهم الجلابيون من أعالي النيل ، وأخيراً البن الحبشي الشهير الذي تنتجه ولاية (كافا) الواقعة على الحضبة الجنوبية .

أما الواردات فقاصرة على منتجات حوض البحر المتوسط ، فلا ينشد إلى الحبشة إلا قليل من بصيص نور المدنية الحديثة .

ولقد جاء الفاتحون العرب عن طريق هذه الموانئ ، وجاءوا معهم باللغة والكتابة التي لم تزل تستعمل حتى اليوم في مختلف أنحاء إثيوبيا ، كما تسربت من قبل عن هذا الطريق : الثقافة اليونانية التي جاءت معها بالمسيحية فأصبحت من يومئذ دين الدولة الرسمي ؛ ومن ذلك الطريق نفسه جاء الفوج الأول من الزوار الغربيين ، من البرتغال ، فحملوا إلى البلاد أصول الحضارة الغربية الحديثة .

بيد أن طريق المواصلات هذا لم يكن مأموناً في كل الأحيان ، فكثيراً ما كان ينقطع خلال فترات طويلة ، لا سيما منذ ظهور الإسلام ، فظل الأحباش في عزلة عن العالم الخارجي ، يحيط بهم أجناس من الناس لا يدينون بدينهم ولا يشاركونهم في عاطفة ؛ فحملهم هذا على الحذر من كل ما هو أجنبي ؛ ثم تأصل الشك والحذر في النفوس بعد اتصالهم بآبناء دينهم البرتغاليين الذين جاءوهم طامعين ؛ فظلوا بعد ذلك قروناً برهبون الأجنيبي ويقفلون أبوابهم دونه ، حتى صارت هذه القطيعة جزءاً من موارثهم العقلية والدينية ؛ فلا يكادون يأمنون جانب الغريب ، خشية أن يكون له وراء الأكمة كمين يترص بهم ؛ فلا عجب أن يظل الأحباش بعيدين عن كل تطور في الفكر أو في وسائل المعيشة .

أهل الحبشة

ينتسب الأحباش إلى سبط حام ، وهم فريقان : الذين يعيشون في المناطق الشمالية الغربية ، ويمتدون بصلة القرى إلى قبائل الدناكل والصوماليين التي تضرب في صحراء النوبة ، وسكان الجنوب ، وهؤلاء قد اختلطوا وامتزجت دماؤهم بدماء الزنوج الذين نزلوا إلى داخل البلاد من أعلى النيل ، ومن أجل ذلك يختلفون ، أصلاً ولساناً ، عن سكان المناطق الشمالية والوسطى . وقد حدث في غابر الزمان - منذ نحو ألف سنة قبل ميلاد المسيح على وجه الترجيح - أن عبرت بعض القبائل العربية اليمنية البحر الأحمر واستقرت على شاطئ الصومال ، ثم تغلغت إحدى هذه القبائل ، وتدعى بالحبشات ، إلى المنطقة الشمالية من الحبشة ، فأطلق عليها اسم « حابش » ، ومنه اشتقت تسمية الحبشة تحريفاً ، ثم قبيلة أخرى تدعى « بني عجازى » ، ومنها اشتقت تسمية اللغة التي يفخر الأحباش بأدائها القديمة والتي ما زالت تنظم بها التراتيل الدينية في الكنائس حتى يومنا هذا .

وقد امتزج أفراد هذه القبائل بالسكان الحاميين وفرضوا عليهم عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وأصهروا إليهم ، ومن نسلهم كانت نواة الشعب الحبشى ذى الثقافة السامية والأصل الحامى ، ثم تجمعت هذه العناصر وارتبطت فيما بينها بصلات الأرحام ، إلى أن قامت مملكة أكسوم في الطرف الشمالى الغربى من البلاد ، وكان ذلك في القرن الأول بعد الميلاد . وظلت هذه المملكة تمتد سلطانها على الجنوب قرابة ستة قرون ، إلى

أن بزغ فجر الإسلام في شبه جزيرة العرب ، غير أنه لم يصل إلى تلك الأصقاع النائية ، فاعتنق سكان الشمال الديانة المسيحية ، في حين امتدت فتوح الإسلام إلى المناطق الجنوبية فأسلم سكانها ، وما كاد ينقضي القرن الثاني عشر حتى كانت تعاليم الإسلام قد امتدت وانتشرت في ولايات أمهرا وجودجام وشوا ، ولم يبق على دين الوثنية إلا سكان الجبال الذين لم تغمرهم المدنية . أما الأمهرية ، لغة الدولة الرسمية في الوقت الحاضر ، فهي لهجة بعيدة كل البعد عن لغة (العجيز) الأصلية .

وفي القرن الرابع عشر غزا سكان الصومال المسلمون الهضبة الحبشية الوسطى ، ولكن الأهالي ظلوا على لغتهم ودياناتهم ، إلى أن نال الغزو قبائل (الغالا) الوثنية خلال القرن السادس عشر ، فاعتنقت إحداها الإسلام - وهي قبيلة (الأولو) - وظلت القبائل الأخرى على دين أسلافها . وعلى اختلاف القرون ظلت عاصمة الحبشة تتقل شيئاً فشيئاً نحو الجنوب ، فاستقرت بعد أكسوم في مدينة جوندار شمالى بحيرة تسانا ، إلى أن استقرت في مدينة أديس ابابا خلال القرن الماضي ، لتتصاؤل نفوذ الملوك وسلطانهم في الشمال . . .

وغزا المسلمون ميناء مصوع ، كما استولى رجال قبائل بيدجا النوبية على المناطق الساحلية ، وهذا سبب احتفاظ سكان النصف الشمالى من إريتريا الإيطالية (سابقاً) بتقاليدهم الحبشية وديانتهم المسيحية .

أما الإسلام فقد انتشر في الجنوب والشرق حيث استقرت قبائل الغالا السالفة الذكر .

أصل الحبشة

كما جاء في الأساطير

ينتمي ملوك إثيوبيا - الذين يأتفون من إطلاق اسم الحبشة على بلادهم - إلى إحدى سلالات الملك سليمان ، الذي تروى الأساطير أنه - حين شرع في إقامة المعبد في أرض القدس - أوفد إلى أركان الدنيا الأربعة رسلا يأتونه بما يلزم لبناء عرشه ، ويدفع ثمنه ذهباً وفضه .

وقد سمع بذلك تاجر يدعى (تاماران) من مودى قصر الأميرة ماكيدا (بلقيس) الحبشية ، فشد رحاله وعبر البحر الأحمر حاملاً إلى الملك سليمان أحجار (السافير) الزرقاء ونخشب الآبنوس الصلب ، ولاحل بأرض سليمان الحكيم ، راعته أمة الملك وبهرته حكمة الملك ، فرفع إلى الأميرة تقريراً ضافياً عما رأت عيناه وسمعت أذناه ؛ فاستقر رأى الأميرة على أن تزور ملك سليمان ، وأمرت بتجهيز قافلة عظيمة من

(•) تختلف الأسطورة هنا ما ورد في القرآن الكريم من قصة بلقيس وسابان ؛ فبلقيس عندنا هي ملكة « سبأ » من بلاد اليمن ، لا أميرة من الحبشة ، وقصة اجتماعها بسليمان مفصلة بوضوح في سورة « النمل » على غير الوجه الذي تروى به هنا ؛ وإنما أثبتناها على هذا الوجه المخالف نقلاً عن الرواية الحبشية ، لأنها بسبيل مما تروى من التاريخ الأسطوري لأهل الحبشة فيما يمتدنون لا فيما نؤمن به .

الجمال والبغال والحمير ، وصعد إلى القدس حاملة إلى الملك أفخر الهدايا وأتمن الرياش ؛ فلما وصلت إليها استقبلت بحفاوة بالغة وأسبغ عليها سليمان كريم عطفه ، فكانت تجلس إليه لتستمع إلى أحاديثه عن الخالق وعبادته ، وما زال بها حتى كفت عن عبادة الشمس والقمر والكواكب ، واعتنقت اليهودية .

وقضت الأميرة في ضيافة سليمان ستة أشهر كاملة ، ثم قررت العودة إلى عاصمة مملكتها ؛ فلما سمع سليمان بنيتها على الرحيل ، نأجى ربه قائلاً : اللهم اغفر لعبدك . . . هذه امرأة ذات جمال وفتنة ، وقد سعت إلى من أقصى بقاع الأرض ، فهلا رزقتني منها يا رب غلاماً يستوى على العرش من بعدى . ! »

وتقول الأسطورة إن سليمان لم تراوده نفسه إلى يلقيس إلا من أجل هذه الغاية ، ليكون له منها ولد يجلس على عرش الحبشة ، وينشر تعاليم الدين اليهودي فيها ، ويقضى على الوثنية . . .

ثم تمضى الأسطورة فتروى أن سليمان أقام للضيف الكريمة وليمة فاخرة ، وأمر بأن تقدم لها الأطعمة الحريفة المشبلة ، لكي تحس بالظماً الشديد ، فلما انتهت المأدبة دعاها سليمان إلى قصره ، فترددت في أول الأمر ، ثم نزلت على مشيئته بعد أن عاهدتها ألا يحاول معها أمراً تأباه ، وعاهدته ألا تمس شيئاً في قصره إلا بإذن منه . . .

ثم أمر سليمان بإعداد فراشين له ولضيفته في بهو واسع من أهباء القصر ؛ فلما انتهت المسهرة ، أطفئت الأنوار واستلقي كل منهما على

فراشه ، وتظاهر سليمان بالنوم العميق ؛ وكان خلق الأميرة جافاً من شدة
الظما ، فقامت من فراشها ومدت يدها إلى وعاء الماء لتروى غلتها ، فإذا
سليمان يهب من فراشه صائحاً بها : قد تنقضت العهد ومستت شيئاً في
القصر بغير إذن مني !

فغضبت الملكة واحتجبت بأن العهد الذي عاهدته لا يشمل الماء ،
فأجاب سليمان : إن الماء أعلى شيء على الأرض ، ومنه خلق الله كل
شيء حتى !

فاستغفرت الأميرة متوسلة إليه أن يأذن لها في أن تشرب ؛ فقال
سليمان : إذن فإني في حل من عهدي كذلك !

وهكذا خضعت بلقيس لإرادة سليمان فقال منها مثاله . . .

ثم رأى سليمان في منامه كأن الشمس تهبط على أرض يهوذا ، وكان
قوماً من رعيته يحاولون الانقضاض عليها وتحطيمها ، فترفع الشمس إلى
السماء ، ثم تهبط بعيداً بعيداً ، على أرض روما والحبشة . . .

وفي صباح اليوم التالي قدم سليمان إلى بلقيس خاتماً وطلب إليها ،
إذا ما أنجبت غلاماً ، أن تعطيهِ إياه وتبعث إليه به ، لأنه أبوه !

ويروى بعد ذلك أن بلقيس عادت إلى الحبشة ، ثم ولدت غلاماً
سمته منليك ، فلما بلغ مبلغ الرجال أعطته أمه خاتم سليمان ، وزودته
بفاخر الهدايا ، وجهزت له قافلة كبيرة تصحبه ، ويتولى قيادتها التاجر
تاماران إلى القدس ، وطلبت إلى تاماران أن يرجو سليمان تنويع ابنه ملكاً
على الحبشة ، ويصدر قانوناً بأن يظل عرش الحبشة وفقاً على سلالة

متليك من الذكور دون الإناث ، كما كان العهد من قبل . . .
 فلما وصل الركب إلى غزة استقبل اليهود ابن مليكهم بالحفاوة
 والاحتفالات العالية ، وصار في ركابه عدد كبير منهم إلى القدس ، حيث
 استقبله سليمان الحكيم وأسبغ عليه عطفه وأكرم وفادته ؛ فلما قدم له
 متليك الخاتم دليلاً على بنوته ، قال سليمان إنه ليس في حاجة إلى بيعة
 لإثبات نسبه إليه ، لأن قسماً وجهه وتكوين جسده تم عن حقيقة
 أصله . . .

ورفع تاماران رسالة الأميرة إلى سليمان فتلاها ، ولكنه أخذ يحاول
 إقناع ولده البكر بأن يكون ولياً لعهد ، وحاكماً على شعب إسرائيل من
 بعده ؛ ولكن متليك أبى محتجاً بأوامر أمه ، فلم يسع سليمان إلا الاعتراف
 به ملكاً على الأحباش ، وأطلق عليه اسم داود ، كما أصدر قانوناً بأن
 يكون عرش إثيوبيا وفقاً على الذكور من أسرته دون الإناث . . .

ثم أسر كبير الكهنة إلى داود أن بركة الإله ستعم بلاده إذا آمن
 بدين يهوذا ، وأن اللعنة لا بد أن تحل عليه إذا عصى تعاليم هذا الدين . . .
 وجمع سليمان وزراءه ومستشاريه فخطب فيهم قائلاً إنه نصب ولده
 البكر داود ملكاً على الحبشة ، وعلى كل واحد منهم أن يوفد أول ولد
 يولد له إلى تلك البلاد ، ليكونوا عماداً للملكه ، ومستشارين مخلصين له ،
 يتولون تصريف شئون المملكة إلى جانبه . . .

ولما حان وقت رحيل متليك إلى بلاده ، أبدى أولاد النبلاء من
 شعب سليمان أسفهم على رحيلهم من أرض آبائهم ، وأخذوا يلعنون ذلك

اليوم الذى أصدر فيه سليمان هذا القرار المحجف .

ولكن آزارياس ابن رئيس الكهنة دبر فى نفسه أمراً ما لبث أن أفضى به إلى بقية أولاد النبلاء فأقروه عليه ، وخلّصته أن يلجأوا إلى نجار ماهر ، ليبقى لهم هيكل من الخشب شبيهاً بهيكل سليمان ، ويستبدلوه به ، ثم يحملوه معهم إلى الحبشة !

وفى ليلة دامسة الظلام ، قاموا بتنفيذ مشروعهم وحملوا الهيكل معهم وقد أسدلوا عليه غطاءً يخفيه ، ثم جدوا فى المسير ، فقطعوا صحراء سينا فى أيام معدودات ، حتى بلغوا الأراضى المصرية ، ثم انحدروا منها جنوباً إلى الحبشة . . .

و هذه الأثناء ، أفضى أولاد النبلاء بالسر إلى منليك (داود) ففرح فرحاً عظيماً وأقبل عليهم بهنهم على ما دبّروا . . .

أما سليمان الحكيم فقد أحس بعد رحيل ولده بانقباض شديد ، عزاه إلى فراق ولده ، ولكن كبير الكهنة لم يلبث أن اكتشف السر ، فراح يلطم خديه ويمزق صدره ، ولما عرف سليمان بالحقيقة ، أمر بإعداد جيش للحاق باللصوص الذين استولوا على عرشه خلصة وذنسوا الهيكل بفعلتهم الشنعاء !

وبلغ الجيش أرض مصر ، فعلم أن داود وحاشيته قد رحلوا منذ نحو شهر ، ولم يبق لهم أمل فى استرداد العرش ، فعاد سليمان إلى بلاده مهموماً كاسف البال ، وشاور كبير الكهنة ، فاستقر رأيهما على كتمان السر ، حتى لا يعلم اليهود أن عرش سليمان قد انتقل عن أرض يهوذا . . .

وبعد عدة سنين أوفد بلتازار ملك روما رسولا من لدنه إلى سليمان ، يطلب إليه أن يزوج أحد أبنائه لابنته ، ليعتلى عرش روما من بعده ؛ وكان سليمان قد ولد له بعد داود ولدان : هما : أدراميس ، وروبوم ؛ فأرسل سليمان (أدراميس) إلى روما ، وجعل روبوم ولياً لعهدده ؛ وبذلك حكم (روبوم) أرض يهوذا ، وداود الأصقاع الجنوبية ، وأدرايميس جنوب أوربا وشرقها ؛ وتحققت النبوة القائلة بأن أولاد سليمان سيحكمون بلاد العالم المتحضر جميعاً ، ثم لا يلبث اليهود طويلاً بعد ذلك فيتفرقون في أنحاء الأرض . . .

وقد حاد ملوك روما من سلالة سليمان عن دينهم بعد المسيح ، كما تم تدمير الهيكل في أرض يهوذا ؛ فلم يبق من سلالة سليمان من يتبع دينه وتعاليمة إلا سبط منليك (داود) . . .

• • •

وغنى عن البيان أن هذه الأسطورة لا تستند إلى دعامة من التاريخ ؛ وحسبنا دليلاً على ذلك أن ملوك أكسوم ظلوا على الوثنية حتى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، وتدل آثارهم على أنهم كانوا يتفاخرون بنسبتهم إلى إله الحرب « ماحرم » .

ويبدو أن البواعث التي حفزت إلى نشر هذه الأسطورة ترجع إلى رغبة الأحباش في إرجاع نسبهم إلى أصول عريقة ؛ وفي التاريخ القديم والحديث نفاثر لمثل هذا الزعم ؛ فحين اتصل الرومان القدماء بالحضارة اليونانية ، لم يرضهم أن يكونوا مغمورى النسب ، فراحوا يتقنون في بطون



كيف انتقل هيكل داود إلى الهيبة ؟

التاريخ حتى عثروا على أسطورة تزعم أن أحد سكان طروادة المدعو (إنيه) فر بعد سقوطها وعبر البحر إلى إيطاليا ؛ فزعم بناء روما وسادتها أنهم حققته !

وعلى هذا المنوال نسج الأحباش ، فإنهم بعد أن اتصلوا بمدنية الشرق المسيحية ، رأوا أن يخلقوا لأنفسهم أصلاً تاريخياً ، فبنوا على قصة من قصص التوراة هذه الأسطورة الملفقة ليحققوا لأنفسهم ما أرادوا من التفاضل بماض مزعوم ؛ وقد يكون للأحباش بعض العذر من هذا إذا ما علمنا أن نفرأ من الإنجليز يروجون أسطورة أخرى مؤداها أن السكون جنس من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وأن الإمبراطورية البريطانية هي أرض الميعاد . . .

ولعل أول ما نبه الأحباش إلى اختراع هذه الأسطورة ، هو ما جاء في الكتب المقدسة من أن ملكة سبأ قصدت إلى مملكة سليمان من بلاد صهيقة لتنهل من حكته — وقد أشارت آيات من القرآن الكريم إلى شيء من هذا المعنى — فلم يلبث الأحباش أن لقفوا هذه القصة ونسجوا حولها الأساطير . . .

وقد قيل إن تاريخ مثلك بلفيس يرجع إلى القرن الأول بعد الميلاد ، حينما تولى يوسف عليه السلام خزائن فرعون في أرض مصر ؛ فلماذا لا يزعم الأحباش أن بلفيس هي ملكة أثيوبيا التي أنجب منها سليمان ابنه داود ؟ وإذا كان داود هو ابن سليمان البكر ، فلا بد أن يكون الأحباش أعرق أصلاً وأكرم محتداً من النبلاء اليهود ومن سلالات أولاد سليمان

جميعاً

أما لماذا اعتنقوا المسيحية ولم يبقوا على دين سليمان ، فإنهم يقولون إن شقيق ملكهم الأول في أثيوبيا ، كان ملكاً على روما ، فليسوا هم وحدهم الحفظة على تراث سليمان ، وما دام ملك روما قد اعتنق المسيحية ، فمن حقهم أن يعتنقوها مثله !

وقد يكون من البواعث على ترويع هذه الأسطورة ، رغبة الأسرة الحاكمة في إقناع الشعب الإثيوبي ببحثها الإلهي ، ما دام أصلها يرجع إلى نبي الله سليمان ، وما دام سليمان هو الذي توج منليك ملكاً على الحبشة ، فإن كل ثورة على أحد الحاكمين من سلالة حرام ، بل كفر بنعمة الله ؛ ثم إنهم بهذه الأسطورة — فوق ذلك كله — خنولة المسيح عليه السلام ، وحسبهم ذلك شرفاً في الدين والدنيا جميعاً !

هذا ويزعم المؤرخ العربي « أبو صالح » الذي وضع في سنة ١٢٢٥ بعد الميلاد كتاباً عن تاريخ الكنائس والأديار في مصر ، أن لدى الأحباش حقاً عرش سليمان الذي يحتوي على لوحين من الحجر منقوش عليهما بعض ما فرض الله من شرائع الدين اليهودي . . .

ويضيف المؤرخ إلى ذلك أن ملوك الحبشة لعهد ليسوا من سلالة داود ، وإنما يرجع أصلهم إلى موسى بن عمران عليه السلام ؛ وهو دليل على أن الأسرة الحاكمة في ذلك العهد (أسرة زجوى ، التي طرد آخر ملوكها سنة ١٢٧٠ م) — قد منيت الملك من أصحابه الشرعيين ، فلا عجب أن تتحلل لنفسها أصلاً يرجع إلى سيدنا موسى ، لتكون بهذا

النسب المتحول أسبق وأعرق من أسلافها الذين يتسمون إلى سليمان الحكيم .. وهذا الزعم لا يؤيده دليل ثابت من التاريخ ، ولعله قائم على ما جاء في التوراة من أن موسى اتخذ لنفسه حليمة حبشية ؛ وهو سلاح استخدمته الأسرة الحاكمة في ذلك الوقت لتشهيره في وجه أنصار الأسرة المخلوعة !

وبجمل القول أن هذه الأسطورة نشأت في القرن السادس الميلادي ، عقب ظهور الإسلام ؛ وكانت مملكة الأحباش يومذاك في عزلة تامة عن العالم الخارجي المسيحي ؛ ثم ازدادت هذه الأسطورة تأصلا في النفوس ورسوخاً في العقول على مر الأيام ، إلى أن تزعزع مركز الأسرة الحاكمة التي غصبت العرش في منتصف القرن الحادي عشر واستولت على الحكم قرناً وثلاث قرن . . .

ولعل هذه الأسطورة أدرجت في كتب التاريخ التي وضعها بطارقة الإسكندرية ، زعماء الحبشة الروحانيون ، الذين كانوا يناوئون تلك الأسرة الغاصبة ويؤيدون الأسرة المغلوبة على أمرها .

وفي مستهل القرن السادس عشر ، كان المرجع التاريخي الجلدي ، وهو من وضع أحد الأوربيين ، يقرر للعالم أن عرش سليمان يزين كندراثة أكسوم ، وأن الأسرة الملكية من سلالة سليمان الحكيم ، وطبقة النبلاء من أحفاد رجال البلاط السلياني ، ورجال الدين من سلالة كبير الكهنة في القدس ؛ وقد آمن الناس بهذه الخرافة رداً من الزمن ، وآية ذلك أن النسخة الملكية من كتاب (كبيرنا ناجاست) الذي يحتوي على النسخة الملكية الحبشية ، سلبه سليمان ، كانت قد اختفت في

ظروف مريبة من كندوائية أكسوم ، وانضح بعد ذلك أن لورد نابيير الإنجليزى قد سرقها وحملها إلى بلاده ، فلما اعتلى العرش حنا الرابع ، خليفة تيودور ، كتب إلى لورد جرانفيل يستحلفه أن يرد إليه النسخة ، لأن رعاياه لا يدينون له بالولاء إلا إذا عادت لحيازته ، فرق له قلب جرانفيل ، وتوسط لدى أمراء المتحف البريطانى فردوا إلى النجاشى كتابه المقدس !

ولا جدال فى أن هذه الأسطورة المتأصلة فى نفوس الأحباش ، والتي تزعم أنهم شعب الله المختار ، وأصحاب عرش سليمان ، وحملة الوصايا الإلهية التى نزلت على سليمان الحكيم - كانت أكبر معين لهؤلاء الأحباش فى حروبهم ضد المسلمين تارة وضد الوثنيين تارة أخرى .

وقد ظلت الأسرة التى تزعم الانتماء إلى سليمان ، تحكم البلاد من سنة ١٢٧٠ إلى سنة ١٨٥٥ ، وإن كان ملوكها خلال القرن الأخير ملوكاً بلا سلطة ، على أنه من بواعث فخر الأسرة المالكة فى كل بلد ، أن تتوارث العرش ستة قرون متصلة .

أجل ، لقد قامت حروب واشتعلت ثورات فى الحبشة ، غير أن الشعب ظل على ولاء دائم لملوكه الذين يحكمونه طوعاً لإرادة الله !

حقيقة الأصل في التاريخ

كان أول الزوار الأوربيين الذين نزّلوا في الأراضي الحبشية ، بعض أمراء البحر اليونانيين الذين أوفدهم بطليموس الثانى وبطليموس الثالث إلى هذا الأصقاع لاكتشاف مجاهل الساحل الغربى للبحر الأحمر خلال القرن الثالث قبل الميلاد ؛ وكان من أهداف هذه البعوث إنشاء علاقات تجارية مع سكان البلاد ، واقتناص القبيلة الأفريقية التى كان البطالسة يقومون بترويضها وتدريبها لمواجهة القبيلة الهندية في ساحات الحرب ؛ ولهذا الغرض أقام وكلاء البطالسة على طول الساحل عدداً من المحطات التجارية والاستراحات التى كانت تستخدم مراكز تبدأ منها الحملات التى تنغلغل إلى باطن الغابات وسفوح الجبال ، حيث تكثُر القبيلة المطلوبة للملك مصر ؛ وكان من بين هذه المحطات واحدة أطلق عليها اسم ييريتيس التى كانت تحتل موقع مدينة أدوليس الساحلية ، حيث يقع ميناء أكسوم الحالى في أغلب الظن .

على أن المحطات المذكورة لم تلبث أن هجرها الذين أنشأوها بعد أن تقلص سلطان البطالسة ، ولكن العلاقات التجارية مع ذلك لم تنقطع بين المصريين والأحباش .

وقد ورد ذكر مملكة الأحباش لأول مرة في كتاب «جولة في بحر

إريتريا » الذى يتضمن مشاهدات لمؤلفه فى رحلات قام بها إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي خلال السنوات الأخيرة من القرن الأول الميلادى ، وجاء فى هذا الكتاب عند ذكر ميناء أدوليس : أن عاصمة ملوك أكسوم تقع على مسيرة ثمانية أيام فى داخل البلاد ، حيث يجلب العاج الذى يشحن على ظهور الدواب إلى الميناء المذكور ، ومنه يصل بحرًا إلى الإمبراطورية الرومانية . . .

ثم يضيف المؤلف : إن سيد هذه الأصفاق يدعى « زوسكالس » وقد انصف بالشع والجشع ، ولكنه نبيل ، نهل من ثقافة اليونان قسطاً وفيراً . . .

وعلى ذلك يعتبر زوسكالس هذا فى نظر التاريخ أول ملك للحبشة ، ومنذ عهده ظلت الحضارة تسير اتساع حركة التجارة بين بلاده والأقطار الخارجية . .

ومن بين المراجع القديمة التى يعتمد بقيمتها التاريخية إلى حد ما ، سفر كبير وضعه أحد تجار الإسكندرية عن رحلاته فى البحر الأحمر ، وذكر فيه أنه فزل ذات مرة فى ميناء أدوليس ، فأوقد إليه ملك أكسوم حاكم الولاية ليرجوه أن ينقل إلى اليونانية لوحيتين ، ذكر الكاتب أنه احتفظ بإحداهما ، وورد فيهما وصف غزوات ذلك الملك ، وإخضاعه لقبائل « بيدجا » الرجل التى كانت تضرب وقتذاك فى الصحراء الواقعة خلف ميناء سواكن ولأهل تنجانيقا التى تقع على الحدود المصرية الجنوبية ، كما سجل الملك أنه عبر البحر وغزا الأراضي العربية (أراضي

اليمن على وجه الترجيع) وفرض على ملوكها وزعماء عشائرها الجزية وتأمين الطرق التجارية ، البرية والبحرية على السواء . وجاء في الختام أنه أول ملك حبشي كتب له التوقيع في غزواته بتأييد من الإله (ما حرم) الذي أنجبه وأنجب آباءه من قبله ؛ فلما ساد السلام ونخضعت له هذه الشعوب ، عاد إلى أدوليس وقدم القرابين لإلهه العظيم ، ليلحظ بعين رعايته أولئك الذين يعوون باسمه البحار وينخضعون لشطانته !

فلذا جاز لنا أن ندخل في حسابنا عنصر التفاخر والمباهاة ، فلا سبيل لنا إلا الاعتراف بأن هذا الغازي المظفر كان من غير شك هو مؤسس الإمبراطورية الحبشية ، وأنه حكم خلال القرن الثالث الميلادي ، وكان اسمه « أقيلاس » ، وما زالت بعض العملة المضروبة باسمه متداولة حتى الآن بين أيدي الهواة ، أو محفوظة بين جدران المتاحف .

أما خلفه الذي استوى على عرش مملكة أكسوم ، ولدينا عنه بعض المعلومات ، فكان يدعى (آيزاناس) بن (إيلاميدا) ، وقد حكم خلال الربع الثاني من القرن الرابع ، وخلد أعماله وفتوحه في عدة لوحات ، بعضها باليونانية ، وبعضها بلغة اليمن ، وهي تدل على أن الحبشة كان لها ثقافة خاصة إلى جانب ثقافة الإغريق المستوردة .

وكان الملك يصدر مراسيمه باسم « ملك أكسوم ، حمير ، ريدان سبأ ، صالحين ، سيامو ، بيدجا ، كاسو ، ملك الملوك بن ماحرم المظفر الذي لم يعرف الهزيمة قط »

فورود ذكر سبأ وحمير يدل على أن إمبراطورية الحبشة شملت

منذ فتوح « أفيلاس » أراضي اليمن ، بيد أنه ليس من المؤكد أن (آيزاناس) قد حكم الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب ، إذ اقتصرت فتوحه على الأراضي الأفريقية ؛ فقد جاء في اللوحات المذكورة آنفاً أن شقيق الملك ، الأمير سازاناس والأمير حاديفان ، هما اللذان قاما بإخماد ثورة قبائل بيدجا على سلطان الإمبراطور ، وفيما عدا ذلك كانت الحروب قاصرة في عهده على إخضاع شعوب تكاد تكون غير معروفة لدينا ، فيما عدا أهالي النوبة الذين شنوا الغارات على جيرانهم ثم عبروا ضفة النيل فاعتدوا على أراضي الإمبراطور ، ولما أوفد إليهم رسلاً ليوقفهم عند حدهم ويكبح حماح عدوانهم بالحسن ، أهانوهم وسلبوهم أموالهم ، فلما سمع الإمبراطور بذلك جرد عليهم حملة كبيرة ، فراحت تنكل بهم وتطاردهم حتى إذا بلغوا نهر سيدها (النيل الأزرق) ازداد ضغط الأحباش عليهم ، فأت كثير منهم غرقاً ، وظل قائد الحملة يلاحقهم إلى أن دخل أراضيهم فأحرق مدنها وديارهم ، ونهب محاصيلهم من الحبوب والقطن ، وقد ثبت علمياً أن القطن يزرع في السودان منذ آلاف السنين .

ثم واصل الجيش المسير على ضفة النيل الأزرق حتى بلغ أراضي النوبيين الحمر ، فأخضعهم لسلطان الإمبراطور .

وقصارى القول أن هذه اللوحات تعتبر أول وثائق ذات قيمة تاريخية ثابتة لتاريخ الحبشة في هذا العصر . . .

المسيحية في الحبشة

ذكر روفان في كتابه (التبشير في الحبشة) أن فيلسوفاً رومانياً كان في طريق عودته من الهند مع غلامين صغيرين من أقاريه ، فلما وصلت به السفينة قرب الساحل الحبشي رست لتزود بالماء العذب ، وكانت المعاهدة قد فسخت بين الإمبراطورية الرومانية وإمبراطور الحبشة ، ومن عادة الأحباش في مثل هذه الحالة ، أن يعتبروا الرعايا الرومان أعداءً للملكهم ، فيستحلوا دمهم ، فلما كادت السفينة تلقى مراسيها في الميناء حتى انقض الأحباش على ركابها الرومان يعملون السيوف والمدى في رقابهم . . .

وكان الطفلان في أثناء هذه الخزرة قابعين في أحد أركان السفينة يرتعدان قرعاً من هول ما ترى أعينهما ، فلما سيقا إلى قصر الإمبراطور أخذته الشفقة بهما ، فأتخذ من أحدهما ساقياً ، واستشف في الآخر أمارات الذكاء فعهد به إلى مرب خاص ، ثم اتخذه فيما بعد أميناً لخزائنه ، وأسبغ عليه وعلى زميله عطفه وحنانه ، ولما مات الملك ، ترك وراءه أرملة حزينة وطفلاً رضيعاً ، فطلبت الإمبراطورة الأم إلى الغربيين أن يشاركها في تصريف شئون المملكة حتى يبلغ ابنها سن الرشد ، فترلا على إرادتها الملكية ، وتولى أكبرهما (قرومانس) زمام الحكم ، في

إخلاص وولاء ، وكان التجار الرومان يقدون في ذلك الوقت إلى الحبشة لمبادلة السكان سلعاً بسلع ، فيتصل بهم رئيس الحكومة ويكرم وفادتهم ويعمل على تيسير أعمالهم ، فسمع من حديثهم أن هناك رسولا يدعو إلى المحبة وعبادة إله واحد ، فاشتد تحمسه لدعوته ، وترك للرومان حرية العبادة في أي مكان يقيمون فيه كنائسهم ، وأباحهم الأرض بلا ثمن ، ومنحهم كل تكريم وحفاوة ، وبذلك نبث بذرة المسيحية في أرض الحبشة وانقضت الأعوام ، وانتهت فترة الوصاية ، فأعرب فرومانس وقريبه للإمبراطورة الأم والإمبراطور الشاب عن رغبتهما في الرحيل إلى أرض أبويهما في روما ، ولم يثنهما إلخاخ المليك عليها بالبقاء ، بل آثرا الرحيل

وعرج فرومانس على الإسكندرية ، حيث اجتمع بكبير أساقفتها ، وطلب إليه أن يوفد إلى بلاد الكفار عدداً من رجاله الأكفاء المخلصين ليث الدعوة المسيحية ونشر تعاليمها بين مريديها ، فما كان من كبير الأساقفة إلا أن ألحف عليه في الرجاء ليعود أدراجه ويتولى بنفسه مهمة نشر المسيحية في الحبشة ، ثم كرسه مطراناً على أكسوم وتوابعها ، فما لبث أن حول الإمبراطور عن دين أسلافه إلى دين المسيح

هكذا شرح روفان في كتابه كيفية دخول الدين الجديد إلى الأراضي الحبشية ، ويؤيده الإثيوبيون فيما يذهب إليه ، مع فارق دقيق ، هو أنهم نسبوا لأنفسهم قصة « فيليب والخصي » الشهيرة ، كما زعموا أن كانداس كانت ملكة على (مروى) بالتوبة لا على الحبشة . وهذا

محض افتراء ، فلم يرد في أى سفر تاريخي أنها اعتنقت المسيحية ، فقد ظل أهل النوبة على دين الوثنية بعد اعتناق الأحباش للمسيحية نحو ثلاثة قرون ، فكيف يقال إن تابعها الخصى هو الذى قام بتنصير الأحباش ، ولو كانت هذه الدعوى حقيقية فمن الذى كرس الخصى وألبسه مسوح الكاهن ؟

يقول الأحباش رداً على ذلك إن الخصى هو الذى هداهم إلى تعاليم الأرثوذكسية ، ولما عاد فرومانس الذى سمي فيما بعد بالأب سلامه ، تولى تعميد من اعتنق المسيحية . . .



مبنى جمعية الشبان المسيحية في أديس أبابا

الحضارة البدائية

ليس لدينا عن الحضارة الحيشية البدائية إلا النذر اليسير من المعلومات ، فقد قدم إلينا كوزماس صورة حائلة اللون عن علاقات الأحباش التجارية بأهالى قلب أفريقيا خلال القرن الرابع الميلادى « وفى هذا الصدد يقول المؤرخ : إن ملك أكسوم كان يمنح سكان المناطق الواقعة حول بحيرة تسانا (الآجاو) حيث يستخرج الذهب من باطن الأرض ، امتيازات خاصة عن طريق حاكم الولاية .

وكانت تخرج من عاصمة المملكة قافلة كبيرة تحمل المواشى وقضبان الحديد وكتل الملح ، وتجد فى السير حتى تصل إلى حدود أراضي الآجاو ، فتضرب خيامها ، وتنتشر ما لديها من خيرات حول المعسكر ، فيقد الأهالى ويختار كل منهم حاجته من السلع ثم يضع فوقها قطعة من الذهب بحجم حبة الفول ، وينسحب ، فإذا رضى البائع أخذ قطعة الذهب ونال المشتري بغيته ، وإن لم يرضه الثمن ، ترك الحبة فوق البضاعة « فلما أن يضيف إليها المشتري حبة أخرى وإما أن يسردها فيقبل على شرائها شخص آخر !

وتستمر هذه المساومة عادة نحو خمسة أيام : ثم تعود القافلة أدراجها ، وتقطع فى طريق الذهاب والإياب ما لا يقل عن ستة أشهر ،

ويترود رجال البعثة بمختلف أنواع الأسلحة لدفع غارات قطاع الطرق واللصوص الذين يعتصمون بشعاب الجبال .

والمفهوم أن القافلة كانت تسير في طريق الذهاب سيراً وثيداً ، بسبب ما يصحبها من قطعان الماشية ، أما في طريق العودة فتجد في السير حتى لا تفاجئها السيول .

كلذا نستطيع أن نقدم صورة ، غير واضحة المعالم ، لما كان عليه البلاط الحبشي خلال القرن الرابع ، فقد أوقف إمبراطور الرومان (جوستينيان) سفيراً يدعى جوليان إلى عاهل الحبشة ، للاتفاق على مرور البضائع التي كان أباطرة الرومان يجلبونها من الهند عن طريق بلاد الفرس ، ولما كانت الحرب مستعرة بين الإمبراطورية الرومانية ودولة فارس ، فقد خشى الإمبراطور أن تقع بضاعته المستوردة غنيمة في أيدي الأعداء ، فهداه التكفير إلى الاستعانة بعاهل الحبشة المسيحي الصديق على مرور وارداته عبر أراضيه .

وإذا كان هذا المشروع قد أحقق ، فقد كتب السفير جوليان وصفاً رائعاً مسهباً للبلاط الحبشي ، ولكن هذا الوصف لم يبق منه على مر الأيام إلا التذرع القليل . . .

فقد ذكر أن ملك الحبشة كان شبه عار ، يتطق بقطعة من القماش موشاة بالذهب تخفي عورته وتندلى على ظهره ، وفي أعلى بطنه قطع مستطيلة من الحرير المخل باللالء ، ويضع حول معصميه أساور من الذهب ، أما غطاء رأسه فكان من قماش الثيل ، تندلى على جانبيه

أربع ذلاذل ذهبية ، وحول عنقه قلادة من الذهب الخالص ، وكان إذا خرج في موكب ركب عربة ذات أربع عجلات ، يجرها أربعة أفيال سود ، قد حليت جوانبها ومقعداتها برفائق الذهب . وكان يرتدى درعاً من الزرد المذهب ، ويحمل حراياً صغيرة مذهبة ، ويحف بركبه مستشاروه وقد ارتدوا أفخر الملابس ، وحملوا مثل الحرايا التي يحملها الإمبراطور ، وكان يسير خلف الموكب الملكي جماعة من العازفين على الناي .

ويضيف السفير أنه حينما دخل على عاهل البلاد ركع في حضرته وعظمه حتى كادت جبهته تمس الأرض ، ولكن الإمبراطور رجاه أن يستوى على قدميه ، فتقدم نحو العرش ورفع إلى المليك كتاب سيده إمبراطور الرومان ، فأخذه وطبع قبلة على خاتم الكتاب ، وأبدى بالغ إعجابه بهدايا أخيه الفاخرة ، ثم فصح الرسالة الإمبراطورية ودفعها لمن يترجمها له .

وتنطبق هذه الصورة التي تمير عن أجداد أوائل ملوك الخيشة على الآثار الباقية من عصرهم في كتدرائية أكسوم تمام الانطباق ؛ فهذه بعض المسلات الضخمة المنحوتة من الجرانيت قد تفوق في حجمها وارتفاعها المسلات المصرية ، إلا أنها خالية من النقوش والرموز ، فلا يعلم إلا الله ماذا كان الغرض منها وما دلالتها : إلا أن تكون مهداة إلى أحد الآلهة التي كان يعبدونها الوثنيون منهم في ذلك الزمان ، وربما كانت هذه المسلات قائمة في أمكنتها لتحديد القبور الملكية ، بيد أن طرازها غير

معروف على كل حال ، وإن كانت تشبه إلى حد ما المسلات المصرية ، ولعلها كانت من وحيها ، لولا أن قواعد مستطيلة لا مربعة كما هو مألوف في شبيهاها ، كما أن أعاليها لم تكن هرمية الشكل ، بل كانت أسطوانية يعلوها هلال ، وأكبر الظن أنه رمز ديني ، لأن له شبيهاً على قطع العملة التي كانت آنذاك متداولة في أكسوم . . .

هذا وفتتصر زخرفة المسلات الأكسومية على أبواب صورية في أسطح القاعدة الأربعة ، وتعلوها أشكال طوابق يحتوي كل طابق منها على عدة نوافذ ، فيخيل لناظرها عن بعد أنها أبراج مشيدة من حجر الجرانيت الصلب . وعلى كل حال فإن هذه المسلات تدل على عظمة بناتها من ملوك أكسوم ، الوثنيين منهم والمسيحيين الأوائل .

وقد ظلت الثقافة الحبشية تنتشر خلال ستة قرون ، فحلت مكان الثقافة الإغريقية المستوردة ، وكان أول ملك حبشي عرف في التاريخ ، ممن نهلوا من ثقافة الإغريق ، وظلت اليونانية تستخدم لغة رسمية في الحبشة وتدون بها المراسم خلال القرن الثالث الميلادي .

ثم استعملت لغة (الجليز) مكانها ، وأخذت اليونانية تنمحى شيئاً فشيئاً حتى زالت .

ولعل ثقافة (فرومانس) اليونانية كانت هي السبب لما ناله من حظوة لدى ملك أكسوم ، إذ رأى أن يستخدم الفتي في علاقاته الدبلوماسية مع الدول الأجنبية .

أما في القرن الرابع فقد كان حاكم ميناء أدوليس يجهل اليونانية ،

والدليل على ذلك أنه لجأ إلى أحد التجار لترجمة لوحات بطليموس وأفيلاس التي كانت مخطوطة باليونانية .

وكان الملك (السباعا) الذى أوفد إليه الإمبراطور الرومانى جوستينيان سفيراً ، يعجّل اليونانية كذلك ، فقد لجأ إلى مترجم لينقل إليه فحوى رسالة الإمبراطور . . .

ولا غرابة فى أن تظل الكتابة على النقود الحبشية باليونانية زمناً طويلاً بعد ذلك ، فهذا شأن الشعوب المتأخرة إلى أن تجد طرازاً جديداً من العملة فتأخذ به ، والشاهد على ذلك أن أوائل الخلفاء المسلمين نقلوا عن البيزنطيين أشكال نقودهم ، فضربت النقود العربية وعليها رسم الصليب ، وكذلك كانت الحال فى الحبشة ، إذ ظل ريال مارى تيريز متداولاً حتى نهاية القرن الماضى ، وما زال يستعمل حتى الآن فى كثير من نواحي الحبشة . . .

هذا والمفروض أن اليونانية كانت لغة الكنائس فى الأصل ، وقد أدخلها التجار الرومانيون الأوائل الذين وفدوا إلى الحبشة وعاشوا فى ربوعها ، وكان أول العهد بترجمة الترانيل والأناجيل إلى لغة (الجيز) فى الربع الأخير من القرن الخامس ، حينما بدأ الأحباش يدخلون فى الدين المسيحى أفواجا ، أما مترجمو هذه الأسفار الدينية فجماعة من أولياء المسيحية عرفوا فى التاريخ باسم القديسين التسعة ، ولعلهم كانوا من الرهبان السريان الذين نزلوا من سوريا إلى الأقطار الحبشية ، وقاموا إلى جانب ما أدوه من خدمات للمسيحية بترجمة عدة مؤلفات يونانية ، أخصها ما يتصل بأصول الرهبنة .

الكنيسة الحبشية

سبق أن ذكرنا أن بطريرك الإسكندرية هو الذى رسم (فرومانس) أول أسقف لدولة أكسوم ، ومنذ ذلك العهد درج باباوات الكرازة المرقسية على تعيين مطارنة الحبشة ، بوصفهم أصحاب الحق دون غيرهم فى هذا التعيين ، على خلاف الكنائس الشرقية الأخرى التى لا تعترف بالمركزية إلى هذا الحد .

ويؤدى المطارنة مهامهم ويتولون أعباءهم نيابة عن البطريرك وباسمه ، وليس لهم حرية التصرف فى مناطق اختصاصاتهم ، وقد طبقت السياسة المركزية المذكورة ، على غرار ما درجت عليه الكنيسة القبطية ، فى الحبشة أيضاً ، فأصبح الكاثوليكوس ، الذى يلى البطريرك فى ترتيب الرتب الكهنوتية ، ذا امتيازات وحقوق محدودة على الأراضى التابعة لكنيسته . وقد ابتدع الأقباط مادة قيل أنها قد تقرررت فى المجمع الكهنوتى الأكبر الذى عقد فى (نيسه) قبل تأسيس الكنيسة الحبشية - تنص على ألا ينتخب الإثيوبيون كبير أساقفتهم وإنما يعينه بطريرك الإسكندرية ، وهو وإن كان يعادله من الناحية الشرقية فى المقام والرتبة ، لا يستطيع تكريس من دونه من المطارنة ، أى أنه لا يتمتع بكل سلطان البطريرك المرقسى . . .

كما ينص قرار المجمع الكهنوتي على أنه لو فرض - وهو فرض مستبعد - أن عقد مجمع الكرادلة برئاسة البابا في روما ، فإن بطريرك الحبشة يكون هو التاسع في الترتيب التنازلي بين سائر بطارقة العالم .

أما امتيازات مطران الحبشة ، أو (أبونا) كما يحلو للأحباش أن يسموه ، فغامضة غير محدودة ، إذ يبدو أنه كان من سلطانه في وقت من الأوقات أن يرسم ما لا يزيد على سبعة أساقفة ؛ والحكمة في تحديد هذا الرقم ، أنه بمقتضى القوانين الكهنوتية : لا يمكن أن يتم اختيار بطريرك قبطي إلا إذا توافر من الأساقفة اثنا عشر على الأقل .

وفي الجملة تعتبر الكنيسة الحبشية تابعة للبطريركية المرقسية تبعية تامة في العقائد والتطبيقات والأنظمة والمراسم على حد سواء . . .

في ظلمات التاريخ

يعتبر ظهور الإسلام نقطة تحول في تاريخ الحبشة ، فقد ظلت هذه المملكة ، حتى ذلك العهد ، على اتصال دائم بحضارة تترسم خطاها وتنبثق بهديها وتسير طيعة في أعقابها ، دون أن تتأثر بالمؤثرات الخارجية أو الأحداث التي كانت تتوالى على العالم

وكم اضطهد أباطرة الرومان أعداء المسيحية خارج نطاق إمبراطوريتهم ونكلوا بهم ، فتمقبوا الفرس الذين كانوا يعتقدون ديانة زورواستر ، وأحلافهم اليهود والنسنيين ، ولكن الإمبراطور جوستنيان الروماني على الرغم من شدة تعصبه ، ظل مرتبطاً بأطيب العلاقات بملك أكسوم (السياعا) ، ولم يحاول مرة أن يكرهه على الخروج عن معتقداته التي ورثها عن أسلافه منذ عهد سليمان إلى أن ترعرعت المسيحية وتأصلت جذورها في الحبشة وأصبحت دين الدولة الرسمي ، وظلت صلات المودة مستمرة مع دولة الرومان المسيحية . . .

ثم امتدت فتوح المسلمين إلى فلسطين وسوريا ومصر عام ٦٤٢ ميلادية ، فأصبحت دولتا الحبشة والنوبة في عزلة تامة عن العالم الخارجي ، ومنذ ذلك الحين غرق تاريخ الحبشة في دياجير الظلام ، فلا نكاد نعرف عنه إلا ما يأتينا لماماً من تواريخ البطارقة الأقباط ، وتلميحاً أو

إشارات في كتب المؤرخين والجغرافيين العرب ؛ ثم بدأت خيوط الفجر تظهر في سماء التاريخ الحبشي قرب نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، فراح الكتاب الوطنيون يدونون الأحداث المحلية على صورة بدائية قريبة الشبه بما يروى في الأوساط الشعبية من مغامرات أبي زيد الهلالي ، إلى أن هبط البرتغاليون في الأقطار الحبشية خلال القرن السادس عشر ، فصار لدينا عن تاريخ الحبشة مجموعة من الوثائق والملاحظات عن تطور المدينة الحبشية ، وضعها عدد من الكتاب والباحثين الممتازين .

فيروى أن أول اتصال بين الأحباش ودولة الإسلام الفتية لم يكن طابعه العداء أو بقصد العدوان ؛ فقد رحب ملك الحبشة في بلاطه بالمسلمين الذين هاجروا من مكة الوثنية في بدء الدعوة المحمدية . . .

وقد ورد في كتب السيرة أن سيدنا محمداً بعث إلى ملك الحبشة قبل أي ملك آخر من ملوك الأرض ، برسالة دعاه فيها إلى الإسلام بدين الله الخفيف ، ويقال إن ملك الحبشة تلقى هذه الدعوة بما يليق بها من تبجيل وحسن إدراك ، بعد أن تبين صدق محمد واعترافه بالنبوة العيسوية وطهارة السيدة العذراء مريم .

وقد آمن بعض الأحباش برسالة محمد ، إلا أن ملوك الحبشة ظلوا على دين آبائهم ، ومع هذا لم يمتد جهاد الإسلام إلى هذا القطر المسيحي .

نعم إن العلاقات بين الأحباش وبعض خلفاء المسلمين لم تكن علاقات ود بصفة مستمرة ، فقد كان رعايا ملك أكسوم يستأثرون دون

سواهم بتجارة البحر الأحمر ، وكثيراً ما كانوا يشنون الغارات على سواحل شبه جزيرة العرب ، كما حدث خلال عام ٧٠٢ إذ اقتحم الأحباش ميناء جدة ، وخيل لبعض الناس أنهم سيمضون في طريقهم إلى مكة لتحطيم الكعبة . فما كان من الخليفة إلا أن جرد حملة استولت عنوة على الموانئ الحيشية التي كان يلجأ إليها القراصنة الأحباش . . .

ويقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعث بأحد مواليه المغضوب عليهم منفياً إلى ميناء مصوع ، مما يدل على أن هذا الميناء كان ملكاً للعرب منذ عام ٦٣٤ ، على أن هذه الملكية لم تدم طويلاً ، وآية ذلك اعتداء القراصنة الأحباش على الأراضي العربية ذاتها .

ولم يتم استيلاء العرب على المنطقة الساحلية الحيشية إلا في القرن الثامن ، كما سبق أن ذكرنا ، انتقاماً لما فعله الأحباش في جدة .

ويرى زائر القصر الذي بناه الوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٥ هجرية) صورة زيتية ضخمة تضم ، فيما تضم ، نجاشي الحيشة إلى جانب قيصر الروم وكسرى أنوشروان ولذريق آخر ملوك أسبانيا ، وكلهم ممن دانت عروشهم للعرب وخضعوا لسلطانهم .

ولا نسوق هذا اثباتاً على التاريخ ، فقد كانت جزر دهلاخ الواقعة تجاه الساحل الحيشي في أيدي العرب الذين قضوا على القراصنة الأثيوبيين قضاء مبرماً ، كما دُمر في ذلك العهد ميناء (أدوليس) فلم قم له بعد ذلك قائمة .

وبعد ضياع الموانئ انقطعت أسباب الاتصال بين الأحباش والعالم

الخارجي انقطاعاً تاماً ، فولوا وجوههم شطر الجنوب خلال القرنين
التالين ، وراحوا يوفدون المبشرين إلى ولايات أمهرا وشوا ، لنشر المسيحية
بين سكانها المتوحشين .

وبينما كان ملوك الحبشة يخطبون ودأقرانهم الملوك المعادين للعرب ،
أخذت قبضة الخلفاء المسلمين تراخي عن الساحل الحبشى ، وانضوت
قبائل (بيدجا) - الوثنية التي اعتنقت الإسلام - تحت لواء ملوك
اليمن .

وفي أواخر القرن التاسع أخذ ملوك الحبشة يستردون أراضيهم الساحلية
التي كان يحتلها العرب ، فعادت الحبشة مرة أخرى دولة بحرية تجارية
تربطها باليمن علاقات الصفاء وتبادل المنافع ، ويؤدى المسلمون من سكان
جزائر دهلاخ ومينامى مصوع وزيلع الجزية للعاهل الحبشى المسيحى .

وظلت مملكة الحبشة مزدهرة حتى سنة ٩٧٥ ميلادية ، ثم أصابها
نكسة نورد أسبابها فيما يلى ، كما جاءت فى تاريخ بطارقة الإسكندرية :

كتب النجاشى إلى جورج ملك النوبة يستنجد به من شر ملكة
وثنية طغت على بلاده وأذلت رعاياء وأحرقت الكنائس والأديار فى بلاده .
وكان سبب هذه اليلايا والنكبات التي انصبت على بلاده فيما يرى ،
أن البلاد محرومة من بركة المطارنة ، وكان سبب هذا الحرمان أن أحد
أسلافه استدعى وهو على سرير الموت مطران الحبشة وطلب إليه
أن يقرر من الذى يلى العرش من بعده ، أولده الأكبر ، أم ولده
الأصغر ؟ فأشار عليه المطران بطرس باختيار الأصغر ، ولكن اثنين

من الرهبان المصريين (ميناس وفكتور) تدخلوا في الأمر ، وأبرزوا كتاباً من بطريرك الإسكندرية يرى فيه المطران بطرس بالزور والادعاء ، ويقرر أن الزعيم الروحي الحقيقي هو (أيونا) ميناس ؛ فتشجع الأخ الأكبر وطرد شقيقه بعد أن قتل الأب بطرس . واستتب له الملك حيناً ، غير أن الراهب فكتور قد سول له الشيطان أن يستولى على نقائس الكنيسة ويقر إلى مصر ، حيث راح ينفق آلاف الجنيهات على ملاذته . . .

فلما اكتشف النجاشي ذلك أمر بإعدام الأنبا ميناس ، وراح يبيح عن خليفة له . ففضض بطريرك الإسكندرية وأبى أن يعين خلفاً له ، كما سار على هذا النهج خلفاؤه من بعده ، فحرمت البلاد بركة المطارنة !

ومن أجل هذا الحرمان الذي انصبت بسببه النكبات على الحبشة ، يرجو الملك أخاه ملك النوبة أن يتشفع لدى البطريرك الأكبر ويطلب له الغفران ، ويعين للكنيسة الحبشية راعياً من قبله . . .

ويضيف كتاب « تاريخ بطارقة الإسكندرية » إن ملك النوبة وفق في مساعيه ففتح البطريرك البركة لابنه النجاشي ، وأرسل مطراناً إلى الحبشة ، فلما لبث أن انتصر على أعدائه ، وفرت جيوش الملكة الوثنية إلى ديارها مهزومة .

ولو أننا سلمنا بحقيقة ما ذكر من أن اللعنة قد زالت عن الحبشة بعطف بطريرك الإسكندرية ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أن هبة النجاشي قد أصيبت في ذلك التاريخ بجرح لم يلتئم ؛ فقد انفصلت عن التاج

أملاك شاسعة ، تأسست فيها ممالك إسلامية في جزر دهلخ ، كما ضاعت زيلع ، وانتشر الدين الإسلامي في معظم مناطق الصومال العليا ، فأصبح العداء سافراً والخطر جائئاً بصفة مستديمة على صدر ملوك الحبشة .

وفي عام ١١٥٠ أوفد النجاشي إلى القاهرة سفارة إلى البطريرك ترجوه أن يعين خلفاً لمطران الحبشة ميخائيل الذي هرم ووهن عظمه ولم يعد يستطيع القيام بمهام رسالته . فيما يزعم النجاشي . . . ولم يكن هذا هو السبب الحقيقي لطلب تعيين خلف للمطران ميخائيل ، وإنما يرجع السبب إلى أن هذا النجاشي كان قد اغتصب العرش من الملك الشرعي ، فأبى المطران ميخائيل أن يمنحه البركة ويتولى تنصيبه . . .

فلما بلغت البطريرك حقيقة الأمر ، بعث إلى النجاشي يقول له : إن تقاليد الكنيسة تحول دون تعيين مطران جديد ما دام الرسول الأصيل على قيد الحياة . ورفض راعي الكنيسة المرقسية أن ينزل على رجاء النجاشي رغم ضغط رئيس وزراء مصر عليه . . .

والمفهوم بداهة أن الغاصب الذي نحن بصدده ، هو مؤسس أسرة زجوى التي حكمت الحبشة مائة وثلاثة وثلاثين عاماً ثم نزل آخر ملوكها العرش عام ١٢٧٠ ميلادية . . .

ويبدو أن أعضاء هذه الأسرة الملكية الغاصبة ، رفعوا شأن قبائل أجاو على حساب العناصر الأوستقراطية السامية ، واتخذوا من مدينة

لاستا ، معقل قبائل الآجاو المذكورة : عاصمة للكهم ؛ وكان معظم أفراد الأسرة يحملون أسماء حامية الأصل أو مشتقة من الحامية ، كما كانت لغة الدولة الرسمية في عهدهم هي لغة (الجيز) .

وكانت هذه الأسرة : كما أسلفنا : تدعى — كما كانت تدعى سالفها — أنها من سلالة إسرائيلية ، مع فارق واحد ، هو أنها لا تنسب إلى سليمان الحكيم . بل إلى موسى عليه السلام

على أن ملوكها اعتنقوا المسيحية . وكانوا مضرب الأمثال في التقى والورع . فأقاموا الكنائس . ولم يفضوا بمال في سبيل زيادة الأديار ودور العبادة والتسكك ، وخاصة في البقاع الجبلية ؛ كما ينسب إليهم الجانب الأكبر من أجداد الحبشة في القرون الوسطى .

ولا يسع الباحث إلا أن يدهش حين يرى تلك الكنائس التي نحتت كل منها من صخرة واحدة . وتم تفريغ باطنها ، وحليت جدرانها الداخلية برسوم بارزة تمثل القديسين

ولعل أغرب هذه الكنائس وأفخمها كنيسة (مخلص العالم) التي قُدَّت كذلك من صخرة واحدة ، يبلغ طولها ١٥ متراً ، وعرضها خمسة وعشرين متراً ، وتحيط بها أعمدة ضخمة ، وينقسم داخلها إلى خمسة أجنحة ، كما تزين جدرانها صور بارزة للملك أسرة زجوى ، وبعض الرسل

ولم يثبت بصفة قاطعة من الذي أوحى ببناء هذه الكنائس الفخمة ، ومن الذي قام بتصميمها ، غير أن الأساطير الحبشية تنسبها إلى جماعة

من البنائين الأقباط ؛ ومهما يكن الأمر ؛ فإن بعض تفاصيلها المعمارية تدل على أنها مستوحاة من الطراز العربى تارة والطراز البيزنطى تارة أخرى .

وفى عدا هذه الآثار التى بقيت من عصر ما بين الفتحوات الإسلامية ، وفى عدا ما نعرفه من عودة الأسرة المالكة السلمانية - لا نكاد نعرف من تاريخ الحبشة بعد ذلك إلا قليلا مما يتصل بعلاقات الكنيسة الحبشية بالبطريركية القبطية فى الإسكندرية ؛ على أن هذه العلاقات قد اعترأها الزمن وقتاً ما ، نتيجة لفتح المسلمين لمصر ، إذ صارت المواصلات بين البلدين أكثر مشقة وأقل أمناً مما كانت فى عهد الرومان ، وكثيراً ما حدث فى أثناء الاضطرابات والفتن أن كانت البعثة الحبشية تتأخر عن الوصول إلى مصر عدة سنوات ، وكان بطريرك الإسكندرية يخضع لأوامر الولى المسلم ، ولم تكن صلات الولى به تخلو من الحذر والحيطه ؛ ألم يكن البطريرك على اتصال دائم بملوك الجنوب المسيحيين الذين يخضعون دائماً لتوجيهاته الدينية ؟

ولم يكن ملك الحبشة يستطيع أن يوفد بعثة للمطالبة بتعيين مطران جديد إلا بعد أن يظن إلى حسن صلته برجال البلاط فى القصر الملكى بالقاهرة ؛ وكان على البطريرك أن يودى إلى الخزانة المصرية جملاً كبيراً حتى يسمح له بتكريس مطران جديد للكنيسة الحبشية . . .

والتحليل الطبيعى لهذا الوضع الغريب يتلخص فى أن بطريرك الإسكندرية يهتم بطبيعة الحال بأن تظل امتيازاته قائمة بالنسبة لما له من

نفوذ على الكنيسة الحبشية .

وملوك الحبشة يخشون أن تحل عليهم اللعنة الإلهية إذا هم حرموا بركة البطريك أو انقطعت أسباب الاتصال بينهم وبينه .

والملوك المسلمون لا يجدون غضاظة في التفاهم على أمر لا يضرهم من بعيد أو من قريب ما دام هذا التفاهم يكفل لهم وسيلة للقيام بضبط غير مباشر على جيرانهم المسيحيين . للحصول على امتيازات مقابلة من الجانب الحبشي ، كالمظالم للمسلمين الأقباش بحرية العبادة ، أو الترخيص لم بناء المساجد وإقامة الشعائر الدينية ، هذا إلى ما يصيبه الملوك المسلمون من كسب مادي يأتيهم على صورة هدايا من الذهب والعاج والعبيد . . .

وليس في تاريخ هذه العصور المتطاولة أى أثر لمحاولة من جانب ملوك الحبشة في سبيل التخلص من سلطان بطريركية الإسكندرية ، إلا ما قام به أحد الملوك في أواخر القرن الثاني عشر حينما حاول الضغط على المطران ميخائيل لكي يقوم برسامة سبعة من الأساقفة ، مستهدفاً بذلك أن ينتخب هؤلاء الأساقفة مطراناً جديداً ، فكان رد المطران ميخائيل أنه لا يستطيع التصرف إلا بإذن من البطريك ، فما كان من الملك إلا أن أوفد إلى ملك مصر سفارة كبيرة لإقناعه بالضغط على بطريك الإسكندرية للحصول على هذا الترخيص . . .

وكاد الملك ينتصر لرأى ملك الحبشة ، لولا أن أدخل البطريك في روعة أن هذه المحاولة ما هي إلا دسيسة يرمى ملوك الحبشة من ورائها

إلى التحرر من ربة السيادة المصرية ، غير المباشرة ، على هذه الأقطار ،
فرفض الملك العرض الحبشي وفشلت المحاولة الانتصالية عن كنيسة
الإسكندرية .

وفي هذا العصر توطدت دعائم التقاليد الكنسية التي لم تزل سارية
حتى اليوم ، ومقتضاها ألا يجوز بحال ما أن يكون مطران الكنيسة
الحبشية من رعايا ملك إثيوبيا ، بل يجب أن يكون مصرياً ممن تدوجوا
سلك الكهنوت القبطي . . .

والعيب الظاهر في هذا التقليد أن مطران الحبشة المصري الذي
لا يعرف سوى اللغة القبطية (والعربية فيما بعد) لم يكن يستطيع أداء
رسالته على الوجه الأكمل ، بلهله بلغة الجيز أو اللغة الأمهرية التي
تتلى بها الصلوات الكنسية ، فكان المطران مضطراً للاعتداء على مترجم .

وثمة صعوبة أخرى . فقد يحدث في أحيان كثيرة ألا يكون بين
الرهبان المصريين من يقبل أن يظل مبعداً طول حياته بين ظهرائي
شعب من الأحباش ؛ فكان بطريرك الإسكندرية يضطر في تلك
الظروف لرسمه راهب لا ترتفع أخلاقه أو سيرته فوق مستوى الشبهات . . .

وعلى الرغم من بعض الحوادث العابرة . يمكن القول إجمالاً إن مطارنة
الحبشة من المصريين كان لهم الفضل في بقاء الكنيسة الحبشية على اتصال
مستمر - ولو على بعد - ببقية العالم المسيحي ؛ كما يرجع الفضل إليهم وإلى
رؤسائهم الروحانيين ، بطاركة الإسكندرية ، فيما كان يبذل من جهود
في سبيل بعض الإصلاحات حيناً بعد حين . . .

ونضرب لذلك مثلاً ما حدث في منتصف القرن العاشر ، حينما كلف بطريرك الإسكندرية مطران الحبشة بتعديل مراسيم الكنيسة وتحويل الشعائر الدينية بحيث تطابق الشعائر التي تقام في الكنائس المصرية ، بتحريم تعدد الزواج ، والتقرب إلى الله عند افتتاح دور العبادة بتقديم القرابين والذبائح ، ووضع قواعد جديدة تكفل عدم سهولة الطلاق على النحو الذي كان مألوفاً في الحبشة حتى ذلك العصر ، إذ كان ينص في عقد الزواج على حق الرجل في نبذ زوجته في نظير تعويض تتقاضاه المرأة المطلقة !

كما كانت المعاشرة (الزواج العرفي) مباحة . ففُضِيَ عليها بنص من القانون الكنسي الذي يأتي تعميم الأطفال الذين يأتون عن هذا الطريق المحظور .

وكان من أثر هذه الإصلاحات أن أجبرت الكنيسة الملك على طلاق جميع النساء اللائى كن في عصمته سوى زوجته الأولى . . .

ومن المحتمل أن أحد ملوك أسرة زجوى قد قام بمحاولة في سبيل الاتصال بالبابا في روما والخضوع لقوانين الكنيسة الكاثوليكية ، إلا أن الوثيقة التاريخية الوحيدة التي تؤيد هذا الاحتمال تعتبر غامضة ضعيفة الدلالة ، فها هي إلا صورة رسالة خطها يراع البابا إسكندر الثالث عام ١١٧٧ ووجهها إلى « ابنه المحبوب ملك المنود » وأشار فيها إلى أن طيبه الخاص فيليب قابل رسلاً أوفدهم الملك المحبوب - - يعني ملك الحبشة - - لإبلاغه رغبته في اعتناق المذهب الكاثوليكي ، وأن ينزل له البابا

عن كنيسة في روما ومذبح في كنيسة الرسل بالقدس : وتتضمن الرسالة وعداً من البابا بإجابته إلى جميع ما يلتمس ، على شرط أن يوفد إلى روما سفارة رسمية تحمل هذه الطلبات إلى البابا مكتوبة . . .

على أن هذا الكتاب ، كما يبدو ، لم يصل إلى صاحبه ولم يترتب عليه أى أثر إيجابي ، ومن الواضح أن أمر هذا الملك المجهول قد اختلط على قداسة البابا ، فظن أن الأحياء هنود !

ولكن الأمر الذى لا يحتمل الشك : هو أن الرسل الذين قابلوا طيبس البابا كانوا موفدين من قبل ملك الحبشة : فمن الثابت تاريخياً أن الخلاف كان على أشده خلال هذه المدة بين ملك إثيوبيا وكنيسة الإسكندرية .

عودة الأسرة السلمانية

لم تنقضى عدة أيام من عام ١٢٧٠ حتى شهدت الحبشة انقلاباً قام به أحد المطالبين بعرش الأسرة السلمانية فأطاح بعرش آخر ملوك أسرة زجوى الفاصهة، وكان هذا الانقلاب نقطة البداية لبعث الآداب الحبشية التي ازدهرت طوال خمسة قرون . وكانت هذه الثقافة قاصرة حتى ذلك العهد على المؤلفات المنقولة عن اليونانية على أيدي خريجي مدرسة القديسين التسعة ، ثم تطورت الثقافة الجديدة فراحت تنهل من الآداب القبطية والعربية ، وخاصة الكتب الدينية في اللغتين . وتتناول تاريخ السيد المسيح ، والرسول الاثني عشر ، وقصة السيدة العذراء . وما تم من معجزات في عصرهم ، كما وضع بعض الكتاب سير أولياء المسيحية الأحباش ، أمثال زاجتي لالبيالا وتفلحاي مانود . ممن عاشوا في ذلك العصر ، كما كتبت الأناشيد الكنسية والتراويل الدينية ونماذج الصلوات بلغة الخيز . ويل هذه المؤلفات في الأهمية ما وضع من الأساطير الشعبية ، مثل كتاب « كبرا نوجاست » الذي يجمع بين أصول الأسرة السلمانية وأعمادها في التاريخ ، وكتاب تاريخ اليهود بقلم يوسف بن غوريون . وتاريخ الإسكندر الأكبر الذي يشتمل على بيانات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية ، وقد نقل عن العربية ، ومؤلفه راهب مصري عاصر غزو المسلمين لمصر ، ويعتبر هذا

الكتاب مرجعاً قيماً لما فيه من سرد منطقي واقعي لبعض الأحداث التاريخية .

وفي هذا العصر أيضاً وضع تاريخ الحبشة المعاصر (وقتذاك) أما ما سبقه من عصور فليس هنالك لدينا إلا قوائم بأسماء الملوك تختلط تواريخهم وعهودهم ، فيتمتد معرفة المتقدم منهم والمتأخر ، على عكس المراجع التي توجد في محفوظات القصر الملكي بأديس أبابا منذ بداية القرن الرابع عشر ، والتي تسجل الأحداث التاريخية بحسب ترتيبها الزمني على صورة مستظمة ، وترد أعمال الملوك وفنوحهم وما خلفوه من تراث تاريخي ، أمثال زازا ياكوب (ابن يعقوب) الذي ارتقى العرش عام ١٤٣٤ ، وخلفائه بيذا ماريام (بيد مريم) ولينا دنجل (ينخور العذراء) . ويروي أن الملك آمدا سيون (حكمة صهيون) الذي حكم الحبشة فيما بين سنتي ١٣١٤ - ١٣٤٤ . كان في أول عهده فاسقاً خليعاً ، وكانت أولى ضحايا غوايته حظية أبيه ، ثم اغتصب اثنتين من شقيقاته ؛ فما كان من الراهب (هونوريوس) إلا أن استنزل على رأسه اللعنة ، وتوعدّه بالويل والثبور ، فكانت عاقبته الجلد في الطريق العام حتى فاضت روحه . وفي تلك الليلة شبت النار في العاصمة فالتهمت الجانِب الأكبر منها ، وقال رجال الدين تعليقاً على ذلك الحريق الجبار إن دماء الراهب هونوريوس قد تحولت إلى نيران أتت على الأخضر واليابس في المدينة .

وقد ساور الملك الشك في أمر رجال الكنيسة ، فاتهمهم بأنهم هم

الذين أشعلوا النار ، وأمر بأن يساقوا إلى المنفى ؛ ثم ثاب بعد هذا الحادث إلى رشده ، فصمم على أن يسلك السبيل السوي ، ويعف عن هذه الكيثر ، ويقود شعبه إلى المجد ، فجهز جيشاً كبيراً خرج على رأسه لسلسلة من الغزوات المظفرة ، فضم كثيراً من الأراضي إلى رقعة مملكته ، وكان يحكمها المسلمون ، على طول المنطقة الساحلية من إريتريا الحالية .

ويقال إنه كان يحرق بلاد المسلمين ويخضع ملوكهم فلا يلبثون أن يعودوا ليشنوا الغارات على أطراف مملكته ، انتقاماً لما نالهم على يديه ، فيحرقون الدساكر والمدن ويسبون النساء وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم ، فيعود الملك إلى الغارة عليهم ، وهكذا . . . ولما طال الأمر بعساكره انفضوا من حوله وآثروا السلامة والراحة من هذه الحروب التي لا تنهى ، فقام الملك على رأس حفنة من رجاله المخلصين يذود عن حياضه ، فلما رأى الجند ذلك عادوا إلى مليكهم خاشعين مستغفرين يطلبون إليه قيادتهم إلى النصر . . .

ويمضي التاريخ بعدد حروب آمدا ضد المسلمين ، وخضوعهم له ، ثم ثوراتهم عليه وحملاتهم الانتقامية على أراضيه ، حتى نهاية عهده ؛ كما تحتل صفحات التاريخ بأمثال هذه الحروب طوال القرن الخامس عشر الميلادي ؛ ويبدو أن معظم الدويلات الواقعة عند أطراف الأراضي الحبشية كانت قد خضعت لسلطان ملك إثيوبيا وكانت تؤدي كل منها الجزية المفروضة إلى خزانته .

ويعضى تاريخ ملوك الحبشة في سرد تفاصيل الحملات الحربية التي جردها هؤلاء الملوك ، على وتيرة متشابهة ؛ ولسنا ندري مدى الحقائق فيها ومدى التفاخر ؛ على أن الملك (زارا ياكوب) الذي حكم ثمانية وثلاثين عاماً في منتصف القرن الخامس عشر ، كان جندياً عظيماً بقلوب ما كان نزاعاً إلى الإصلاح . وكان من قراراته الحكيمة القضاء على الوثنية في بلاده ، وإنذار من لا يؤمن بتعاليم المسيح بالموت شتقاً ومصادرة أملاكه ، وجرد لحد الغرض جيشاً من الجواسيس لضبط من كانوا يعبدون الأصنام والنار خلسة ، وكان يحرم على أعوانه الأكل على مواقد الغير ، والاتصال الجنسي بالنساء دون الحيللات ، وقص شعورهم حتى لا تقع في أيدي السحرة فيكيدون لهم . . .

وكان زارا يبحث الكهنة على إلقاء عظاتهم خارج الكنائس في غير أيام الآحاد .

وقصارى القول أن زارا لم يترك باباً إلا طرفه في سبيل تحويل بلاده إلى المسيحية الصحيحة . وفي عهده تم الصلح بين الكنيسة الحبشية وقدااسة البابا في روما ، فأوفد مندوبين عن كنيسته إلى المجمع الكنسي الذي عقد بمدينة فلورنسا عام ١٤٤١ ، والذي أعرب فيه مندوبو بطريرك الإسكندرية ومواليه مطارنة الحبشة عن الخضوع لسلطة الفاتيكان . بيد أن هذا الوضع لم يؤخذ به في الحبشة بصفة جدية ، إذ ظلت الكنيسة والشعب على إيمانهم بتعاليم الأرثوذكسية ؛ ويبدو أن أقطاب الكنيسة الحبشية استكروا هذا التجاوز من جانب مندوبيهم ، فلم يرد

ذكر لهذه المناوصات التي دارت والقرارات التي اتخذت بمجمع فلورنسا في تاريخ الحبشة ، فيما عدا ما ذكر عن شخص يدعى (قران) قيل أن بابا روما قد انتدبه لتلقيين الأحباش تعاليم الكاثوليكية : فلما مثل في حضرة الملك زارا ، واجهه بعدد من الفقهاء الأرثوذكس ، فأفجموا الرسول البابوي بما أدلوا به من حجج دامغة ، مما اضطره إلى التعجيل بالرحيل . . .

وأهل هذا الرسول أول أوربي وطىء الأراضي الحبشية ، أما بعده فقد وفد إلى العاصمة رسام من فينسيا يدعى نيكولا برانكايليوني ، قيل أن الملك أعجب بلوحاته إعجاباً شديداً . فعهد إليه بترتين جدران بعض الكنائس .

ومما يذكر أن برانكايليوني هذا رسم لوحة زيتية للسيدة العذراء تحمل ولدها يسوع على ذراعها اليسرى ، فلما رأى رجال الدين الأحباش ذلك الوضع استكروه واحتجوا لدى « ملك الملوك » بأن هذا الوضع لا يرضى السيد المسيح ، إذ أن الذراع اليمنى أفضل من اليسرى ، فلا بد من إحراق هذه اللوحة !

ولكن الملك انتصر للرسام . وظالت اللوحة معلقة في كنيسة السيدة العذراء حتى أحرقت أثناء غارة شنها رجال قبائل (الغالا) على العاصمة الحبشية خلال عام ١٧٩٠ .

وعلى الرغم من توسلات برانكايليوني ، لم يسمح له قط بمغادرة البلاد ، فقتضى فيها أربعين عاماً إلى أن قضى نحبه ، وقد وصفته التقارير بأنه كان رساماً ممتازاً وسيداً مهذباً شريفاً وصاحب أفضال على

من يعرف ومن لا يعرف . . .

ولا شك أن الفن الحبشي قد تأثر كثيراً من اللوحات التي خلفها ذلك الفنان العظيم في مختلف أنحاء الحبشة ، والتي شاهد معظمها القاريز ووضع لها وصفاً تفصيلياً دقيقاً .

القس حنا :

وقد مرت في أوربا خلال القرن الثاني عشر شائعات حول ملك مسيحي غامض ، يدعى القس حنا ، يحكم بلاداً مترامية تقع في أقاصي الأرض ، ولا يعرف حدودها إلا خالق السماوات . . .

وقد نشأت هذه الشائعات من كتاب قيل إن ذلك الملك بعث به إلى الإمبراطور (مانويل كومنين) . وعدد فيه عجائب مملكته ، فذكر أنه صاحب الأمر والسيادة على ثلاثة وسبعين أميراً يؤدون له الجزية ، وأن في بلاده أعجب المخلوقات وأغرب الحيوانات ، ومنها ما كان يعيش في أوائل العهد الحجري ، كالتنين الذي يعيش في النار والذي صنع للملك من جلده ثوب يرتديه ولا ينفع في تنظيفه الماء بل اللهب . . .

ويعضى الملك الغامض في كتابه قائلاً إنه يحكم سلالات الرجال المدنسين الذين حكم عليهم الإسكندر المتمدوني بالانزواء في مدن الشمال فلا يغادرونها إلى يوم القيامة ، وإنه يقطن قصرأ وضع تصميمه القديس توما (سان توماس) رسول المسيح إلى الهند ، وفي هذا القصر من العجائب ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ، ففيه امرأة ينظر فيها فينكشف أمام عينيه

مختلف أنحاء إمبراطوريته !

ويقول القس حنا إن لديه عشرين أسقفاً ، واثني عشر كردينالاً ، هذا إلى جانب بطارقة الهند وسمرقند وصوص ، وعلى الرغم من هذا السلطان الواسع والمجد العظيم ، يأتي عليه ورعه إلا أن يطلق على نفسه لقب القس .

ثم يذكر أنه حينما يخرج للحرب يتقدم فيالقه ثلاثة عشر رجلاً يحمل كل منهما صلياً من الذهب الخالص ، ويتبعه عشرة آلاف فارس ومئة ألف راجل ، ولا أمنية له في الحياة إلا أن يزحف على القدس ويقضى على القوم الكافرين .

نقول : سرت هذه الشائعة في غرب أوروبا سريان النار في الهشيم ، وأخذها الناس على علاقتها ، فبنوا الآمال العريضة على ذلك الملك العظيم الورع في القضاء على المسلمين .

ولا ندري على أي أساس بنيت هذه الأسطورة العجيبة ، ولا كيف نسبت إلى ملك الحبشة ، اللهم إلا أن تكون قد تسربت عن طريق تقرير رفعه أحد الأساقفة في سوريا إلى البابا عام ١١٤٥ ، وذكر فيه أنه سمع عن شخص يدعى الكاهن حنا ، تقع مملكته فيما وراء جبال أرمينيا وفارس . ويذكر الأسقف أن هذا الملك يعد أن هزم الفرس نزل بجيوشه ليشترع القدس من أيدي المسلمين ، ولكنه عجز عن عبور نهر دجلة فعاد إلى بلاده . . .

ولعل هذا الأسقف كان يقصد الأمير جورخان التركي الذي أوقع

بجيوش سلجوق ملك فارس هزيمة متكررة ، فإن تحريف اسم الأمير التركي جورخان إلى الأب حنا (بيرجان بالفرنسية) يحتمل اللبس كما أن رتبته يكاد يكون واحداً في أذن الأوربي .

غير أنه ليس ثمة دليل على أن هذا الأمير التركي كان مسيحياً ، فلما كانت الهزيمة الماحقة التي ألحقها بجيوش سلجوق المسلم وذكرها المؤرخون المسلمون ، أضفوا على جورخان صفة (الكافر) ، وهي الصفة التي كانت تطلق في بعض مراحل التاريخ على المسيحيين (الكفرة) ، وهكذا دخل في روع الناس أن الأمير التركي كان مسيحياً . . .

وهناك سبب آخر ربما كان عاملاً من عوامل هذا الخلط ، فقد بعث البابا إسكندر الثالث إلى ملك الحبشة بكتاب دعاه فيه « حنا ملك الهنود العظيم » ، وراح يزجره على كبريائه الزائفة وزهوه الأجوف الذي يعتبر من أبشع الخطايا ، وفي هذا ما يشبه الإشارة الصريحة إلى الكتاب الذي قيل إن حنا بعث به إلى الإمبراطور مانويل كومنين . . .

ولما وصلت بعثة المستكشفين الذين أوفدهم هنري ملك البرتغال إلى ساحل أفريقيا الشرق ، للكشف عن طريق بحري مأمون بين لشبونة وسواحل الهند ، تراءى إلى مسامعهم خبر ملك مسيحي عظيم يسيطر على الأواصي الواقعة إلى الجنوب من مصر ، ويدعى الكاهن حنا ، فبدأ الملك البرتغال أن يعقد محادثة مع هذا العاقل المسيحي ، فأوفد إلى بلاده بعثة على رأسها الرحالة (بارتوليو دياز) لعقد اتصال بحري مباشر بين البرتغال والهند عن طريق الساحل الشرقى الأفريقى ، وكان من أعضاء البعثة رحالة يدعى

بلرو دى كوفيلهام ، تمكن من الدخول إلى الأراضي الحبشية والمثل بين
يدى ملك البلاد ؛ فلما خيره الملك وعجم عوده ، اصطفاه وأبى أن يسمح
له بالعودة إلى بلاده . فتضى ثلاثين عاماً فى الحبشة ومات فيها .

ويبدو أنه بعد أن نجح البرتغاليون فى اكتشاف الطريق البحرى إلى
الهند ، قلّ اهتمامهم بالكاهن حنا عدة سنوات . ثم عادوا فتحالفوا معه
لكى يأمنوا شر رعايا الدول الإسلامية التى كانت مبعثرة فى ذلك الوقت
على سواحل خليج عدن والخليج الفارسى ، وكان أهلها يشنون الغارات
على السفن البرتغالية .

وقد تولى عقد هذه التحالفه سفارة أوفدت إلى الحبشة فى عهد الملك
(لينا دانجل) عام ١٥٢٠ . وكان على رأسها قراتش-كودياز الذى سبق
أن أشرنا إليه فيما سبق ، والذى وضع كتاباً ضخماً فى وصف البلاد
الحبشية ، يعتبر أول مرجع أوروبى للباحثين فى تاريخ هذا البلد .

حضارة القرون الوسطى

في الحبشة

ما زال اللقب الرسمي الذى يحمله عاهل الحبشة منذ فجر التاريخ الحبشى المعروف ، هو ملك الملوك . ويرجع هذا إلى أن المليك المذكور يتحكم فى مصاير عدة دويلات صغيرة يحكم البعض منها ملوك آلت إليهم عروشها بالوراثة . ويحكم البعض الآخر أمراء يؤدى كل منهم الجزية السنوية لملك الملوك ، وكان منهم المسلمون والوثنيون الذين تقع إماراتهم على حدود الحبشة . مبعثرة هنا وهناك فى الجنوب والغرب ، ولكى يوثق ملك الملوك علاقته بهم كان يعتمد على بناتهم ، ثم لا يلبث أن يتحولن إلى المسيحية . - غير أن هذه السياسة لم تكن تثمر إلا فى النادر ، فقد روى القاريز أن الحرب التى شبت فى عهد النجاشى لبنا دينجل ، كان سببها رفض ملك الملوك الزواج من ابنة ملك هايدا ، بدعوى بروز أسنانها ؛ ولما كانت قد تحولت عن الإسلام ، دينها الأصلى ، إلى المسيحية ، فقد أصبح من المتعذر أن تعود إلى بلاط أبيها ، فتروجت بعد ذلك من أحد النبلاء . واعتبر أبوها الملك هذا الزواج جرحاً أصاب كرامته !

(•) يأبى الإسلام على المرأة المسلمة أن تكون زوجاً لغير مسلم ؛ فإذا فعلت فهي فى حكم المرتدة عن دينها .

ومن المفارقات العجيبة التي تنتج عن هذه السياسة ، ما يحدث أحياناً من أن تصبح ابنة أحد الملوك المسلمين وصية على عرش الحبشة ، إذ أن القانون يقضى بأن تكون الملكة الأم وصية على الملك القاصر حتى يبلغ سن الرشد . . .

وقد حدث أن تولت هيلين ، الملكة الأم ، المفاوضات مع البرتغاليين ، وكان أبوها ملك « دوارن » مسلماً ، ومع هذا فلم تتساحل في حقوق بلادها ، بل حصلت لها في هذه المفاوضات على مزايا لا يستهان بها .

هذا ، وما زالت في قلب مقاطعات الحبشة يدفع ماوكها الجزية ويحتفظون بلقب الملكية ، مع أن أراضيهم قد صارت منذ قرنين ولايات تابعة للسلطة المركزية في أديس أبابا ، من هؤلاء حكام الأقاليم الواقعة على ساحل البحر أو القرية منه ، ويطلق عليهم عادة اسم (بهير ميدير) أو مدير البحر ، فهم يحتفظون بألقابهم الملكية القديمة ، ولكنهم لا يحكمون إلا بمشيئة النجاشي وتبعاً لأوامره ، كما يجوز عزلهم وتولية آخرين مكانهم .

وهناك فريق من الحكام يسمى كل منهم بالرأس ولا يستطيع مناداة أراضيه إلا بأذن من الإمبراطور ، فإذا استدعى أحدهم إلى قصر النجاشي اصطحب جميع أفراد أسرته وحمل متاعه وأمواله ، فقد لا يعود إلى بلاده مرة ثانية !

ويقول الفاريز إنهم حينما يتلقون الأمر بالحضور إلى أديس أبابا ، يرحلون حتى يبلغوا أحد أطراف المدينة ، حيث يضربون خيامهم ويخلعون ثيابهم ، إلا ما يستر العورة ، حتى يحدد لهم موعد المشول بين يدي



شلالات ومنايع أنهار



الطبيعة العذراء في الحبشة !

الإمبراطور ، وقد يطول بهم الانتظار أشهراً قبل أن يقفوا على سبب استعائهم ؟ فإذا ما حل الميعاد ، سار الرأس وأهله حفظة خاشعين إلى القصر ، حيث يتقرر مصيرهم . فلما أن يحظى الرأس بالرضا السامى ، فتقام الأفراح والليالى الملاح ، ولما أن يتلى عليه مرسوم العزل ، ولا معقب عليه ، فيتقبله دوى أن يبت بينس شفة !

ويتولى كل رأس قيادة الجنود الذين يعسكرون فى أراضيه ، كما يتحمل نفقاتهم ؛ وعليه أن يجيى المكوس ويؤدى الجزية التى يفرضها النجاشى .

وقد شهد الفاريز حفل أداء الجزية ، ورأى حاكم ولاية جوجام يتقدم حاسر الرأس عارى الصدر حاملاً صرة من الذهب ، ثم يقف فى البهو بعيداً عن العرش ثم يصيح قائلاً : يا صاحب الجلالة . . .
فيقال له : من أنت ؟

فيقول : خادمك المطيع الذى يسرج بغلتك ولا يأبى أن يؤدى لك خدمة مهما كانت وضيفة ؛ وقد جئت لسيدي بما أمرنى به !
فيقال له : تقدم !

فيسير راکعاً حتى يلمس جيئه أسفل درجات العرش ، فيضع الصرة الرمزية تحت قدمى الملك .

ويقول الفاريز إن أتباع الحاكم يمرون فى هذه الأثناء برحبة القصر حاملين الأقمشة القطنية الرفيعة وأكياس الذهب الذى يقدر وزنه بنحو ٣٠ ألف أقة محمولة على ظهور الإبل والبغال والحمير .

ويضيف الفاريز أن الأحباش يتبادلون السلع ويستخدمون في المقايضة قضباناً من الملح وأخرى من الحديد الذي كان السكان يتفنون في صقله ليتخذوا منه حراياً ومدى .

وكانت إيرادات النجاشي في ذلك الحين تزيد كثيراً على نفقاته ، فطعام الجيش وسائر حاجياته كان يتحملها العروس والحكام ، والرأس الذي لا تعسكر في أراضيه حامية من الجند ، كان يحضر إلى العاصمة حاملاً نصيبه من النفقات عيناً .

وكان النجاشي يقطع أعيان الدولة وسادتها الثيلاء أرضاً ، كما كان بعض الأعيان يحبسون بعض الأوقاف على الكنائس والأديار ليعيش رجال الدين من ريعها ؛ وفيما عدا ذلك كان الولاة والحكام يؤدّون ما عليهم من جزية للإمبراطور الذي كانت نفقاته قاصرة على أهل بيته وحاشيته وأتباعه وحرسه الخاص . وكان يتنازل بين حين وآخر فيرسل هدية إلى أحد الحكام إعراباً عن رضاه عنه ؛ أما الهدايا التي كان يبعث بها إلى الملوك فكانت من الفخامة بحيث تلائم أقدار المهدي إليهم . وتكاد تكون مساوية في قيمتها لما يهديه إليه هؤلاء الملوك . اللهم إلا سلاطين مصر وبطارقة الإسكندرية الذين كانوا يتلقون منه الهدايا القيمة النادرة دون أن ينتظر منهم إلا أن يعينوا له مطراناً جديداً .

وما تبقى بعد ذلك من الإيرادات كان يتكدس في كهوف ومغارات لا يعلم أماكنها إلا أقرب المقربين إلى النجاشي وأكثرهم حظوة لديه ؛ وقد كاشف بيدرو دي كوفيلهام صديقه الفاريز بأن ملك الملوك يودع أحد

الكهوف القريبة من داره مقادير من الذهب تكفى لشراء الأرض وما عليها .
وكان يضيف إلى هذا الكثر مزيداً من الذهب عاماً بعد آخر دون أن ينفق
منه شيئاً . . .

ولم تكن حدود المملكة في ذلك الحين معروفة ؛ وفي ذلك يقول
الفاريز إنها كانت تمتد بحراً إلى ميناء سواكن . ولا يعرف أحد مدى
امتدادها في باطن أفريقيا ؛ أى فيما وراء تلك تيجر وأمهر وأنجوت وشوا
وديمبوا الواقعة على ساحل بحيرة تسانا .

وقد شهد الفاريز سفارة أوفدها ملك النوبة إلى النجاشي ليرجوه أن
يرسل إليه بعض رجال الدين ، فاعتذر النجاشي بأنه لا يستقبل منهم إلا
عددًا محدوداً من مصر ؛ وأن مطران الحبشة ليس له حق الرسامة ، فعلى
أخيه ملك النوبة أن يلجأ إلى كنيسة الإسكندرية فتجيبه إلى ما يطلب . . .
وكانت النتيجة أن ضعفت المسيحية في مملكة النوبة ، فقتلص
سلطان عاقلها ؛ وتوالت غارات المغيرين عليه وهو عاجز عن صدها
ودفع البلاء عن رعاياه ؛ إلى أن انهار ملكه ونشأت على أنقاضه مملكة
سائر الإسلامية .

ولم يكن للنجاشي في ذلك الحين عاصمة واحدة . بل كان يحرق
التوزيع في العاصمة القديمة (أكسوم) . ثم ينتقل في مختلف البلاد على
هواه ؛ إذ كان له في كل بلد قصر ؛ إذا حل فيه صارت المدينة عاصمة
الملك حتى تستويه مدينة أخرى فينتقل البلاط إليها ؛ فإذا ما حل بأرض
ليس فيها قصر يلبق بمقامه ، أقيمت خيام كبيرة ، إحداها للملك

وزوجاته وأطفاله ، وغيرها لأداء الصلوات وإقامة الشعائر الدينية ، وثالثة يقضى فيها الإمبراطور بين رعاياه ويقصل في المنازعات .

وكثيراً ما كان النجاشي يسافر وحده متكرراً ، فيستطى بذلك يحيط به ستة من الغلمان ، يحمل اثنان منهم المظلة الملكية ، ويمسك اثنان آخران بمقود البغل ، ويسير الأنخيران وراء الركب . . .

ويمتاز ملوك الحبشة في ذلك العصر بالنسك والتششف ، وكان معظمهم يعيش في عزلة منطوياً على نفسه ، يقضى الساعات الطوال في التأمل والعبادة ؛ فإذا ما خيم الليل انتقل الملك إلى جناح الحريم ، حيث تعيش الحظايا والزوجات معاً ، وحيث تقام حفلات طرب ورقص بدائية . . .

وكان ملوك الحبشة ، كملوك المسلمين ، يستخدمون في قصورهم غلماناً من غير دينهم ، ممن كانوا يقعون في الأسر أثناء الحروب ، أو ممن يولدون لآباء من الأسرى ، فيحولونهم إلى النصرانية ، فإذا ما أظهر أحدهم نبوغاً ، واكتسب ثقة سيده ، انضم إلى الحرس الإمبراطوري الخاص ، أو أسند إليه منصب خطير في الدولة ، وهكذا كان النجاشي محوطاً دائماً بفريق من الموظفين الذين نشأوا في كنفه وتدرجوا في مناصبهم تحت عينيه ، حتى إذا بلغوا أعلى المناصب اختار من بينهم اثنين يتوليان الوزارة والقيادة العليا ، واثنين آخرين يتوليان القضاء ، ثم خامساً يتولى أعمال الأمين الخاص .

أما القضاء فكان بدائياً ناجزاً ، ويتولاها في العادة رجلان يوفدهما النجاشي إلى كل حاكم من حكام الولايات ، فيفصل أحدهما في القضاء

ويقوم الآخر ، على حد تعبير القاريز ، بأعمال محرر العقود .
 ويفصل القاضي في المنازعات الطفيفة ولا معقب لحكمه ، أما في
 القضايا الكبيرة أو المعقدة فيجوز الاستئناف أمام حاكم الولاية نفسه ،
 كما يجوز أن يرجع حاكم الولاية إلى النجاشي .
 أما محرر العقود فيقرر ما إذا كان الحكم قابلاً للاستئناف ،
 وفي هذه الحالة يتولى هو نفسه تحويل القضية على الحاكم ، أو يشير عليه
 بالرجوع إلى النجاشي .

ويظل المتهم مقيداً بالأغلال في السجن حتى ينظر في أمره ويصدر
 الحكم ببراءته ، ويتعين على أهل السجن أن يحضروا طعاماً له ولحارسه ،
 إذا كان متهماً بجريمة ؛ أما إذا كان متبعين بناء على طلب أحد ، فإن على
 الشاكي أن يقدم الطعام له ولسجانه ؛ فإذا لم يفعل جاز للسجين المطالبة
 بإطلاق سراحه .

وكانت العقوبات عديدة متنوعة ، بعضها وحشي كبير الأعضاء ونزع
 الأظافر ، وتعد هذه الأخيرة عقوبة طفيفة عادية . . .

أما المجرمون السياسيون فكان مصيرهم النفي إلى الأصقاع الجبلية
 البعيدة ، وقلما كان المتهم يعود من منفاه حياً ؛ فقد جرت العادة أن يظل
 في المنفى حتى يموت !

وأما عقوبة الجلد فكانت في ظاهرها أكثر وحشية مما هي في الحقيقة .
 وكان المألوف أن يطرح المتهم أرضاً وهو موثق الذراعين والقدمين عاري
 الظهر ، وتنهال عليه السياط ؛ ولكن الضربات كثيراً ما تنزل على الأرض

فلا يصيبه منها إلا القليل ، وقد لا يصيبه منها شيء . على حسب الأوامر
التي يتلقاها الجلادون !

ويقول الفاريز إنه شاهد في بعض الأحوال قضاء بطرحون أرضاً
ويجلدون لأنهم حكموا بما لا يرضى الله والكنيسة ، أو لثبوت تهمة الرشوة
عليهم ، فإذا ما نالوا جزاءهم عادوا من جديد يحكمون بين الناس ، دون
أن يחדش الجلد كرامتهم !

وفي الحبشة تقليد عجيب يقضى بإبعاد جميع الذكور من الأسرة
الملكية الحاكمة ، فيما عدا النجاشي وأولاده وأحفاده ، كما جرى العرف
على ألا يتولى المناصب الكبرى أو الشرفية إلا أبناء الظهور دون أبناء البطون ؛
وبما أنه لا يجوز بأى حال أن تطالب بالعرش بنات النجاشي أو ذرارهن ،
فانهن وأولادهن يعيشون أحراراً ولا يبعدون إلى المناطق النائية كغيرهم من
أعضاء أسرة الملك !

وقد روى الفاريز أنه شاهد ذات يوم في بلاط النجاشي راهباً
ينحني رسالة قيل أن أحد أولاد عمومة الإمبراطور قد حمله إياها ليرفعها إلى
البرتغاليين ليحرروه من أساره ، فلما علم النجاشي بهذا التدبير ، أمر بأن
يؤخذ بالراهب وحراس الحصن الذي يقبع ابن عمه وراء جدرانها ، وجلد
الجميع بالسياط حتى قضى عليهم !

ولا يعرف أحد على سبيل التأكيد منشأ هذا التقليد ، بيد أنه
يقال إن أول من أخذ به إبراهيم : أول ملك مسيحي في الحبشة .
كما تروى الأساطير أن مائة النبوة الوثنية التي سمحت جيوش النجاشي في

القرن العاشر ، استولت على المنطقة الجبلية التي كانت متنى للأمراء ، وقضت عليهم جميعاً إلا طفلاً صغيراً نجا من المذبحة بأعجوبة ، وكان أحد أحفاده (يوكونو أمك) الذى أسرد العرش للأمة السلمانية .

وقيل أن بيذا ميريام أحد أحفاد هذا الملك . — وقد حكم من ١٤٦٨ إلى ١٤٧٨ ميلادية — هو الذى أعاد هذا التتليد الذى كان سارياً حتى أواخر القرن الثامن عشر . ثم اندثر نهائياً إبان الحروب الأهلية التى اشتعلت حينذاك فى الحبشة .

السفارة البرتغالية الأولى

كان استقبال النجاشي لأول البعث البرتغالية ودياً في جملته ، ثم ارتفعت درجة الحفاوة بالضيوف عندما علم جلالته أن أعضاء البعثة مسيحيون ويمثلون أئمة مسيحياً ، فأصبح عطفه ورعايته على الفاريز ، وراح يستفسره عما غمض عليه من شئون الدين ، ثم رجاء أن يطلعه على ما لديه من كتب الشرح وسير القديسين في الغرب ، ولم يكن الفاريز متصلاً بالقدر الذي يروى غلة الإمبراطور ويفسر له ما بين المذاهب المسيحية من فروق ، فجعل همه الأكبر أن يحصر المناقشة حول موضوع سيادة البابوية وضرورة خضوع كل مسيحي للتعالم الكاثوليكية ، والمطابقة بين شعائر الدين المتبعة في روما والشعائر التي تتمسك بها الكنيسة الحبشية

ولقد أثمرت هذه المناقشات التي دارت بين النجاشي والفاريز ، فعهد إليه النجاشي أن يحمل إلى البابا كتاباً يعلن فيه تمسكه بالمذهب الكاثوليكي . أما من الناحية السياسية فإن المفاوضات التي جرت بين النجاشي وسفراء البرتغال لم تأت بثمارها المرجوة ، ولعل هذا راجع إلى تفاهة الهدايا التي قدمتها البعثة ، وإلى تعالي رئيس البعثة واستكباره ، وهو أمر ترك أسوأ الأثر في نفس النجاشي .

وقد وقع أعضاء البعثة إلى ذلك في خطأ كبير ؛ إذ أطلعوا ملك الملوك على خريطة ظهرت فيها أملاك الكاهن حنا بصورة مبالغ فيها إلى حد بعيد ، في حين ظهرت ممالك أوروبا ، ومنها البرتغال ، ذات رقعة محدودة ! فكان ذلك سبباً لرعزة ثقة الإمبراطور وأنصار آماله في أخيه ملك البرتغال وسلطانه ؛ فاقترح أن يشترك ملوك فرنسا وإسبانيا والبرتغال في حرب صليبية يشنونها على جيرانه المسلمين ؛ ولم يكن البرتغاليون يسعون إلى مثل هذا الهدف ؛ فاعترض رئيس البعثة محتجاً بأن كلا من هؤلاء الملوك الثلاثة يتحيز الفرصة لتوسيع رقعة أراضيه على حساب الآخرين ، وأنهم ليسوا على وفاق فيما بينهم ؛ فأحدث هذا الاعتذار أثراً عكسياً في نفس الإمبراطور الذي أعرب عن بالغ أسفه لهذه الحال التي لا يرضى عنها مسيحي مؤمن ، وقال إنه لو كان بين جيرانه ملك مسيحي لاصطفاه خلا وفاقاً وأنزله من نفسه منزلة الشقيق !

وعلى الرغم من هذه المؤثرات العاطفية ، وافق النجاشي على التزول عن ميناء مصوع ليكون قاعدة بحرية للبرتغال في طريقهم إلى الهند ، ثم تطرق الحديث عن زيلع وسواكن ، فوعده النجاشي بأن يقدم للبرتغال عوناً من الرجال والمؤونة في نظير أن يبعثوا إليه عدداً من أرباب الحرف والفنون والصناعات اليدوية ، من بنائين ونجارين وحدادين وأطباء ومن إليهم ، كما طلب كمية من معدن الرصاص ليغطي بها أسطح الكنائس حتى لا تصيبها المؤثرات الجوية بالتلف . . .

ولما حان موعد رحيل البعثة ، حملها الإمبراطور كتاباً يعتبر

الوثيقة الدبلوماسية الأولى في تاريخ الحيشة : وقد دونت باللغات الحبشية والعربية والبرتغالية : واشترك في تحرير النص البرتغالي كوفيلهام والفارينز وكاتب البعثة ، ثم وضعت كل نسخة منها على حدة في كيس من الحرير الموشى بالذهب .

وفيا يلي مجمل هذه الرسالة الملكية :

« باسم الله الأب الذى لا أول له ولا آخر : وباسم الابن الذى لا تراه العين إلا كما ترى وميض الكواكب في بهيم الليل فتهديها إلى سواء السبيل في عرض البحار : والذى أنجبته السيدة العذراء طاهرة الذيل دون أن يمسها بشر أو يعقد زواجها : وباسم الروح القدس التى تخلق في علياء السماوات وتحيط بجميع الأسمار : آمين .

« هذه الرسالة صادرة عن تجور العذراء (اسم النجاشي عند تعبيده) داود ، ملك الملوك ، حبيب الله ، وحامى الدين ، حفيد داود بن سليمان ، إمبراطور إثيوبيا ورأس ملوكها . وسيد أمراء شوا وكافات وفاتييجوار وجوجام وأمهرا وباجاميدرسى ودامبيا : ووريث ملك سبأ : وسيد الأقطار الممتدة حتى حدود مصر .

« إلى النور الساطع والملوك القادر إيمانويل . الفاتح بإذن الله ، وحامى المذهب الكاثوليكي ، صديق المسيحيين الوفى ، وعدو الكفرة والوثنيين ، سيد أفريقيا وغينا وصاحب البحر الأحمر ، وقاهر العرب والفرس والهنود . . .

« السلام عليك ، ورحمة الله تنزل على قلبك : أيها القوى بدين

الله يسوع المسيح ، يا من تنفض على أعراب الأندلس بلا سيف
ولا درع فتطردهم طرد الكلاب . . .

« والسلام على عقيلتك خادمة العذراء ، أم مخلص البشر ، والسلام
على أولادك وأهلك أجمعين .

« والسلام على ربابنة سفنك التي تذرع البحار السبعة منشورة
الشرع خافقة الأعلام حلقة النصر ،

هذه هي مقدمة الرسالة ، أما موضوعها فسرده للسفارات التي سبق أن
وطئت أرض الحبيشة منذ عهد مانيو ، ثم شكر على الصليبان الذهبية والهدايا
الفاخرة التي جاءت من أخيه ملك البرتغال ، ورجاء ملج بالألأهدأ له بال
حتى يستولى على مدينة القدس الطاهرة ، ثم إشارة أخيرة إلى صفات الكمال
والعلم الواسع التي يتحلى بها أعضاء السفارة البرتغالية . . .

أما ما عدا ذلك من تفاصيل الاتفاق الذي عقد بين الطرفين فلا
يستغرق من الرسالة الملكية أكثر من ستة أسطر ليس عليها من مزيد .

الفتوحات الإسلامية

والبعوث البرتغالية

وكان في الأفق وقتذاك سحب متكاثرة تنذر بعاصفة مجتاحة ؛ فقد فتح السلطان سليم مصر خلال عام ١٥١٦ : وأخضع أهل الحجاز ؛ فأحدثت سيطرة العثمانيين على حوض البحر الأحمر تغييراً شاملاً في الموقف السياسي ؛ وكانت هذه الفتوح دماء جديدة تغذي روح الجهاد الديني الكامنة في نفوس المسلمين ضد أعدائهم ؛ كما أتاحَت الفرصة أمام أمراء المسلمين ليدفعوا رعاياهم إلى ذلك الجهاد . مستعنيين بما كان لدى الأتراك من أسلحة نارية حولت العصابت الخارية إلى قوات نظامية تتوصل في غزواتها بأحدث الأسلحة التي عُرفت آنذاك .

ولم يكن الأحباش والبرتغاليون يدركون بدقة مدى الخطر الجديد الذي يهددهم ، فظلوا ماضين في تنفيذ ما رحدوا من خطة ؛ فها هو ذا النجاشي يطلب إلى البرتغاليين أن يمدوه بعدد من مهرة الصنّاع لتزويد جيشه بالقسي والنبال ، ثمناً للقواعد البحرية التي وافق على منحهم إياها ؛ وها هي ذى البعثة تتلکأ في عملها فتقتضي زهاء ست سنين في عاصمة النجاشي ، ثم لا يكاد أعضاؤها يبحرون من ميناء مصوع حتى تنقض جيوش أحمد بن إبراهيم الغازي : على الجيوش الحبشية ، فتصلبها ناراً

حامية من ينادقها حتى تمزقها شر ممزق ، ويختلط حابلها بنابلها ،
وتتبعثر قلوبها كالهباء تنزروه الرياح ؛ ثم تدخل جيوش الأمير المسلم أرض
الحبشة فتدمر قلاعها ، وتستولى على كتوز الإمبراطور ، ثم تنقض إحدى
الفصائل على منى أمراء الأسرة المالكة فيعمل رجالها السيوف في رقابهم...
وتروى القصص الشعبية الحبشية أن ٩٠ ٪ من الأهلين تركوا
المسيحية ودخلوا في دين الإسلام ، ولم يبق على قيد الحياة من الأسرة
المالكة سوى النجاشي ونفر قليل من رجاله المخلصين ، اعتصموا بالمناطق
الجبلية الوعرة وواصلوا الجهاد . . .

وفي هذه الحنة يتجه النجاشي لبنا دينجل بتفكيره نحو أصحابه
البرتغاليين . لعلمهم بمدون له يدا ؛ فيوفد إلى بلادهم شخصاً مغموراً ،
هو جوان برموديز ، كان يعمل مساعداً في البعثة واستبقاه النجاشي رهينة
لديه حتى يعود السفير الحبشي إلى عاصمة البلاد . . .

فلما مثل جوان برموديز بين يدي ملك البرتغال وقص عليه ما جرى
الملك الحبشة ، أخيه في الدين ، اغرورقت عيناه العاهل البرتغالي ،
وقرر أن يجرد حملة من أملاكه في الهند لنجدة ليتا دينجل ، غير أن
وسائل الوصول إلى الحبشة لم تكن ميسرة في تلك الأيام . . .

وبينما كان البرتغاليون واقفين مغلولي الأيدي ، كان العثمانيون
يفتحون اليمن ، ويخضعون أمراءها ، ويقيمون على طول ساحلها حصوناً
منيعاً ، لا سيما ميناء عدن ؛ فأصبح للأسطول التركي السيطرة التامة على
مياه البحر الأحمر خلال عام ١٥٣٨ .

غير أن البرتغاليين قاموا بغارة انتقامية على السويس ، ثم أنزلوا في ميناء مصروع أربع مئة جندي بقيادة خريستوف بن فاسكو دى جاما الرحالة الشهير . ولكن لينا دينجل كان قد مات في هذه السنة وخلفه على عرش الحبشة ابنه كلوديوس (إفلاديوس) الذى استقر في أحد الأصقاع الجنوبية النائية بولاية شوا . . .

وكان في استقبال الحملة الملكية الأم التي كانت وقتذاك محتشدة في إحدى القلاع المنيعه ، فأرشدت قائد الحملة إلى الطريق للاتصال بابنها . إلا أن الأمطار عاقت سير الحملة حتى شهر ديسمبر ، ثم واصلت الزحف نحو الجنوب . فقطع الطريق عليها أحد الأمراء المسلمين . واشتبك الفريقان في عدد من المعارك ، غير أن الحرب ظلت سجالا بينهما . إلى أن حل موسم الأمطار التالى فانسحب الأمير المسلم إلى سهول دنكال دون أن ينال منه البرتغاليون منالا أو ينال منهم ؛ ولكن الأمير المسلم لم ييأس . فأرسل إلى قائد أحد الحصون العثمانية الواقعة على الساحل المقابل في النين (قلعة زبيد) هدايا جزيلة ، كما أرسل إليه عدداً من أساوى الأحباش ذوى المكانة الرفيعة . منهم ميناس أخو النجاشي . فكان ردّ القائد التركى على هذه الهدية الكريمة أن أرسل قوة من حملة البنادق قوامها ٩٠٠ رجل . انقضت لجيوش الأمير أحمد ، فما زالت تتعقب البرتغاليين حتى قطعت دابرهم وأفنتهم عن يكرة أبيهم ، وفيهم قائد الحامية خريستوف دى جاما ، كما استولت على جميع ما كان لدى البرتغاليين من الأسلحة النارية . . .

ولما استتب الأمر لأحمد ، أتخلى سبيل الأتراك وعاد مظفراً على رأس جيوشه إلى ولايته القريبة من بحيرة تسانا . . .

ولكن النجاشي كان قد التفت حوله ثمانية آلاف مقاتل ، ونصف ألف من الفرسان ، وأخذ أحد البرتغاليين الذين نجوا من معركة الإبادة يصنع البارود من القار والكبريت الذي يوجد بكثرة في هذه الأنحاء ، فلما توفر لجيش النجاشي إقلاديوس قدر صالح من الذخيرة زحف ، على أراضي الأمير أحمد ، فكانت المفاجأة ، والنجم الجيشان ، وكان أحمد على رأس إحدى الكتائب ، فأصيب في مقتل . وما لبث العساكر الصوماليون أن ولوا الأديار . وظل الأتراك يقاومون حتى مات أكثرهم . ولم ينج من حملة البنادق سوى أربعين مقاتلاً . . .

وتحولت الرياح بعد هذه الهزيمة . فأصبح للنجاشي جيش نظامي يجيد استخدام الأسلحة النارية الحديثة التي كان يعتمد عليها الأمير أحمد في إحراز النصر . . .

أما البرتغاليون القلائل الذين ظلوا على قيد الحياة فقد رجاهم النجاشي أن يظلوا في خدمته ويعيشوا معززين مكرمين بين إخوانهم في الدين ، فأذعنوا لإرادته واختلطت ذرايعهم بأهل البلاد جيلاً بعد جيل حتى اندمجت وتأقلمت ، واسترد النجاشي جميع الأراضي التي فقدتها في حروبه مع المسلمين ، كما وظد سلطانه وتقوذه في الولايات المتاخمة للحدود بعد أن كتب له النصر على سكانها الوثنيين .

وأخذ النجاشي يعمل على إصلاح ما أفسدته الحروب ، ودعم

أركان السلام : فأعاد بناء الكثير من الكنائس التي تخربت ، وأمر بنسخ الكتب والمؤلفات التي أحرقت ، ولكنه ما لبث أن ذاق مرارة الخزيعة ، في أواخر عهده ، على أيدي العثمانيين الذين احتلوا ميناء مصوع ، وأقاموا فيه حامية كبيرة تحت قيادة أحد الباشوات ، ولم يكن النجاشي يأمل في هذه المرة أن يأتيه المدد أو تسعفه النجدة من جانب أحلافه البرتغاليين .

هذا ، وقد حدث في عهد النجاشي إفلاديوس أن ادعى برموديز أن بابا روما قد عينه مطرانا للحبشة . وكان النجاشي في ذلك الحين في أشد الحاجة لمعونة البرتغاليين الذين كانوا يؤازرونه في حروبه مع المسلمين ، فامتثل للأمر الواقع وسكت عن ادعاءات برموديز ، إلى أن كتب له النصر فأبعده إلى أحد المعاقل النائية . وأقطع من تبقى من البرتغاليين مساحات شاسعة من الولايات الجنوبية يحيون فيها حياة كريئة ويهسيون منها رزقاً حسناً .

وأخيراً تمكن برموديز من الفرار إلى البرتغال ، حيث عاش بعد ذلك سنوات ، ووضع كتاباً عن ذكرياته في الحبشة ، ملاءه بالأباطيل والترهات . وكان هذا المؤلف حتى وقت قريب يعتبر — مع الأسف — من المراجع التاريخية التي يعتمد عليها الباحثون في شؤون الحبشة ، إلى أن وضحت الحقائق وأثبتت الوثائق التي تحتويها محفوظات الفاتيكان أن ذلك الأفاق لم يجتمع مرة واحدة بالبابا ، وإنما تلقى بركات قداسته في أثناء عودته من البرتغال حين أرسله النجاشي لطلب نجدة من مليكها .

محاولات الجزويت لكثلكة الحبشة

الأب أوفيدو :

أثارت الأنباء الواردة من الحبشة اهتمام جماعة الجزويت « فرأت أن تبشّر بالكاثوليكية بين سكان ذلك البلد ، وكان البابا معارضاً في ذلك ، ولكن الملك يوحنا الثالث ، عاهل البرتغال ، أشار عليه بإيفاد بطريرك روماني . فقرر أن يسند هذا المنصب الخطير إلى جان باريتو ، على أن يعاونه اثنان من المطارنة ، هما أوفيدو وكارتيرو ، حتى إذا مات خلفه أحدهما .

وأبحرت البعثة إلى الهند حاملة إلى نائب الملك هنالك أمراً كتابياً من الملك بأن ترافق البعثة إلى الأراضي الحبشية قوة من الجنود قوامها ٥٠٠ رجل .

غير أن نائب الملك كان يعلم علم اليقين أن إقلاديوس - إمبراطور الحبشة ، يأبى أن يزاول الكاثوليك نشاطهم على حساب الأرثوذكسية ، وخاصة إذا كان هؤلاء المبشرون يعتمدون على قوة عسكرية ، فأرجأ تنفيذ الأمر الملكي بدعوى إعداد الحملة . وفي أثناء ذلك مات البطريرك باريتو قبل أن تكحل عيناه بمراى رعاياه الجدد ، واقتصر الأمر على سفر أوفيدو يعاونه عدد من رجال الدين .

ولعل القارىء لم يزل يذكر تصرفات الدعوى برموديز التي أشرنا إليها في الفصل السابق ، تلك التصرفات التي أوغرت صدر النجاشي على الكنيسة الكاثوليكية ، لما لمسه من حرص أتباعها على السيطرة وإملاء الإرادة .

ولسنا نجد تفسيراً لقبول النجاشي لبنادينجل الاعتراف بسلطة البابوية في روما ، إلا بأنه مجرد تسليم من جانبه بأن البابا هو رأس الديانة المسيحية في جميع أقطار الأرض . ولكنه مع ذلك لم يكن ليرضى أن يعين البابا بطريركا في الحبشة بدلا من المطران الذي تجرى رسامته في الاسكندرية .

وكيف يقبل النجاشي . صاحب السلطان المطلق ، أن يقف مطران مهما يكن مصدر سلطته الكنسية . حائلا دون تنفيذ إرادته ! نعم ، من حقه إسداء النصيح . وتقديم المشورة ، ولكن ليس له أن يصدر الأوامر إلى المليك ، كما حاول من قبل برموديز وإذن ، فقد كان لدى النجاشي أسباب تدعوه إلى الرغبة عن تعيين بطريرك روماني في بلاده . رغم ميله إلى الكاثوليكية .

وكان لبنادينجل عميق الإيمان . واسع الاطلاع ، ومع هذا فإن بعثة الجزويت لم تكد تصل إلى الحبشة وعلى رأسها أوفيدو ، حتى رفض الملك تنصيبه بطريركا كاثوليكيا . محتجا بأن لديه رسولا موفداً من قبل كنيسة الإسكندرية التي يتبعها ، على أنه أوسع صدره لرجال الدين الجزويت ، وقبل أن يقارعهم بالحجة بالحجة ، فلما أن يقتنع فيؤمن

بما يقولون ، وإما أن يقتنعوا فيكفوا عن التبشير .

ومما يذكر أن هذا الجدل قد تناول البدع المكروهة في الدين وضرورة اجتناب جذورها من نفوس السكان . فكان رد النجاشي أن الإمبراطور إفلاديبوس وضع في ذلك الشأن بحثاً . يعتبر دستوراً دينياً ، ويقضى بالآلا يحتفل الأحياء بيوم السبت على غرار اليهود ، وإنما يحق لهم أن يقدموا القرابين لاكتساب رضى خالق السماوات ، وأما الختان فعادة شعبية لا فرق بينها وبين التذوب التي يتزين بها أهل النوبة ، أو خرق الأذن الذي يتجمل به أهل الهند ، وأما أن أكل اللحم حرام ، فذلك أمر متروك للمؤمن الذي يمتنع عن أكل الضأن أو السمك أو الخنزير ، كل حرّ فيما يأكل . ولا حرج في الدين على أمثال هذه التوافه وهكذا أسقط في أيدي الآباء الجذوب . فكفوا عن الجدل ، على أن النجاشي سمع لرعاياه البرتغاليين بأن يمارسوا شعائر المسيحية على المذهب الكاثوليكي .

ثم خلفه على عرش الحبشة أخوه ميناس . وكان قد وقع في أسر الأمير أحمد فأهداه كما قلنا إلى الحاكم التركي في زبيد . ثم فك أخوه الإمبراطور رقبته . وكان من أشد المنحمرين للأرثوذكسية ، عنيفاً جباراً . ذاق مرارة الأمر فزاد طغياناً وقسوة ، فلما استوى على العرش حرم على رعاياه التردد على كنائس الكاثوليك ، فحاول أوفيدو أن يثنيه عن هذا الأمر مبيناً أن في ذلك ضللاً مبيناً ، فكاد النجاشي يقضى عليه بيديه ، لولا شفاعة بعض المقربين ، فأمر بإبعاده إلى قلعة

قاصية ، وهدده بالقتل إذا ما عاد إلى مثل ذلك !
وزاد من حفيظة الإمبراطور على أوفيدو أن ثار أحد حكام الولايات
الساحلية ، بتأييد من البرتغاليين ، فظن أن لأوفيدو يدأ في ذلك
العصيان . . .

وقد أرسل النجاشي حملة لتأديب الحاكم ، فما كان منه إلا أن
استنجد بسمير باشا التركي حاكم مصوع : فنشبت الحرب بين الفريقين ؛
وفي إحدى المعارك مات النجاشي ، فخلفه ابنه سارزا دينجل (١٥٦٣ -
١٥٩٧) ، واستأنف القتال إلى أن كسر شوكة الترك وأحلافهم ،
فولى وجهه شطر الجنوب ، حيث قضى على قبائل الغالا التي تدين
بالوثنية ، وتوغل فيما وراء أراضيها إلى مدى لم يبلغه أحد من قبل . . .

وبجمل القول أن الآراء تضاربت في الحكم على أخلاق البطريك
أوفيدو ، فقايل يقول إنه كان يكيّد للنجاشي ، وإنه هو الذي أشعل
نار الثورات والحروب في الحبشة . وقائل آخر يزعم أنه كتب أكثر
من مرة إلى ملك البرتغال يدعوه لإرسال حملة للاستيلاء على الحبشة وطرد
الأسرة الحاكمة من أراضيها : فإذا كانت هذه التهم غير ثابتة ، فإنها
جائزة ، على أن الآباء الجزويت لقروا شذائد كثيرة من تعصب ميناس
وحيلولته دون أداء رسالتهم التي يقدمونها : وهي تحويل الأحباش من
الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية . . .

وسواء أصدقت الاتهامات المنسوبة إلى أوفيدو أو كذبت ، فإن
من المؤكد أن نشاطه اقتصر ، في عهد سارزا دينجل وفي ظل تسامحه

الدينى على نشر الدعوة الكاثوليكية فى المناطق القريبة فى أكسوم .
 وكان أوفيدو فى آخر أيامه محل احترام الجميع وحبيبهم . لزمه
 وعطفه على الأهلين ؛ على أنه يمكن القول إنه أخفق فى أداء رسالته
 الدينية ؛ إذ أن أقلية ضئيلة هى التى اتبعت تعاليمه . رغم ما لقيه من
 تيسير السلطات الحاكمة وسماحتها .

رسالة باييز التبشيرية :

حقت كلمة الموت على أعوان أوفيدو واحداً بعد واحد . فلم يبق
 لأعضاء بعثته أثر فى البلاد .

وكان الأتراك المسيطرون على ميناء مصوع يحولون دون دخول
 بعوث التبشير المسيحية فى أرض الحبشة . إلى أن تسلس راهب ماروثا
 عربى الأصل إلى الأراضى الحبشية عام ١٥٩٥ . ولكن أمره ما لبث
 أن افتضح ؛ فأخرجته الأتراك عنوة .

وفى هذه الغفوة كان بالهند راهب إسباني يدعى بيتر وباييز ،
 وكان يبذل جهد الطاقة فى سبيل الوصول إلى الحبشة ، فالتصل بمحضر
 الصدقة بأحد الخبصيان المقربين من باشا سواكن . ولما توطدت أواصر
 الصداقة بينهما ، ادعى له أن لبعض أصدقائه فى الهند أموالاً ورثوها
 فى الحبشة ، وأنه يخشى وقوعه فى أيدي الترك إذا ما حاول الدخول فى
 أرض النجاشى ، فيقع فى الأسر ويبيع عبداً رقيقاً ؛ فاحال الخبصيان
 وصحبه فى رحلته . مدعياً أنهما ذاهبان إلى القدس ؛ ثم سأل الحاكم

التركي أن يسمح له بالمرور في طريقه بميناء مصوع : لبعض شئون مالية خاصة : فلما منحه الباشا جواز المرور ، قدمه لصاحبه وتغنى له رحلة موفقة ، وهكذا نجح تدبير باييز ودخل الأراضي الحبشية آمناً سالماً . . .

وكان باييز رجلاً ذا ثقافة عالية . بشوشاً لبن العريكة : يعرف كيف تؤكل الكتف . ويمتاز على سلفه أوفيدو بأنه لم يكن ذا منصب رسمي . بل كان بسيطاً جم التواضع . فعكف على دراسة اللغة الأمهرية ، فلم تنقصر ثلاث سنوات حتى أتقنها . وكان فناناً ، فدرس الهندسة المعمارية والتجارة حتى أصبح ذا باع طويل في كليهما .

وكان يتحلى بالصبر فلا يستعجل الأمور . ولم يحاول يوماً أن يتوسل بأحد ليقدمه إلى البلاط كما كان يفعل المبشرون من قبله . بل قبع في مدينة فريمونا ، وافتتح مدرسة لتعليم الصغار من أبناء البلاد ، فلما لبث أن ذاع صيته وعلا نجمه حتى غدت مدرسته قبلة ينجه إليها أبناء النبلاء والخاصة الذين اتسعت مداركهم ، وأصبح محصولهم من لغة (الجيز) أوسع مما كان يتباهى به رجال الدين الأحباش . . .

وقد استعان باييز في بث الدعوة بصلاة كاثوليكية ترجمها إلى لغة الجيز ولقنها تلاميذه .

وكانت الحبشة في ذلك العهد مسرحاً للفسائس التي كان يحكيها فريقان من الخاصة . أحدهما يتاصر (زا دينجل) ابن شقيق ليثا دينجل الذي أوصى بأن يكون ولياً لعهدده ، والفريق الآخر يؤازر أحد أبناء

التجاشى المقضوب عليه ويدعى يعقوب .

وقد استعرت هذه الدسائس في مستهل عهد الراهب باييز بمدينة فرعوننا ؛ ولم يلبث التوفيق أن حالف التجاشى را ديتجلى فتولى العرش ، وبعد قليل نعى إليه خبر باييز . فأرسل أحد أتباعه يستدعيه للمثول بين يديه .

وجاء الراهب يصحبه اثنان من خبرة تلاميذه إلى القصر ، وكان عدد من رجال الدين الأحياء في ذلك الوقت بمحضرة الملك ، فتناول الحديث بعض شئون الدين . فإذا بالتلميذين يبادلان العلماء ويدليان بالحجج الدامغة ويعارضان الآراء بأفق متسع وعلم غزير ؛ ثم يليهما باييز نفسه . فينتطق لسانه بمقظة في لغة الجيز تنساب إلى قلب الإمبراطور فتز مشاعره وتثير إعجابه ، فلا تكاد تنتهى الجلسة حتى يدعو باييز إلى جانبه . ويكاشفه بأنه قرر أن ويعتنق الكاثوليكية مذهباً ، فيرجوه باييز أن يحتفظ بعقيدته بين حنايا ضلوعه ، ولكن الحماسة كانت قد بلغت به حداً حمله على إصدار مرسوم بتحريم إقامة قداس يوم السبت ، وتغيير بعض المراسيم الدينية التي تنبها الكنيسة الحبشية وتعارض مع المذهب الكاثوليكي ؛ كما كتب للبابا يعلن خضوعه ، وطلب إلى فيليب الثالث ملك إسبانيا والبرتغال يد ابنته لولى عهده ، وناشده أن يبعث إليه بقوة من الجند لمحاربة الكفرة والملحدين . . .

ولكن هذه النزعة الإمبراطورية الحديدية لم ترق في أعين النبلاء ، فشقوا عليه عصا الطاعة ، وأقنعوا البطريرك بأن يذيع رسالة على الشعب

يحلّه فيها من طاعة الإمبراطور والولاء له : فما لبثت جيوش النجاشي أن اندحرت ، ومات زانديجل في أحد المعارك .

وتولى العرش بعده سيسنيوس (١٦٠٧) وكان مثله يعتمد على مؤازرة البرتغاليين . فأضفى حمايته على باييز واتخذهُ مستشاراً روحياً ، ثم ما لبث أن اعتنق الكاثوليكية : ولكنه لم يقع في الخطأ الذي أودى بسلفه وأطاح بملكه : فلم يبيع بالسر . بل ظل خمس سنوات يوطد دعائم العرش ويزيل من طريقه المنافسين والتألبين

وكان أخوه الرأس سيلاس حاكماً على جوجام : فتحول إلى الكاثوليكية على غرار أخيه ، وساعد جماعة الجزويت على بث الدعوة للمذهب الجديد في أراضي ولايته .

وبعد قليل أذاع النجاشي على الملأ أن ازدواج طبيعة المسيح حقيقة لا مرأى فيها ، فشلحه البطريك : ولكن الإمبراطور أرغمه على سحب هذا القرار

واشتعلت نيران الثورة في وجه سيسنيوس مرتين : ولكنه أخذها وقضى على الكثير من أعدائه .

وفي ١٦٢٢ أعلن النجاشي أن دين الدولة الرسمي هو الكاثوليكية : وشهر بالبطارقة الأقباط .

على أن باييز مات في غضون تلك السنة : ففقد فيه الإمبراطور رائده ومشجعه

بعثة الأب منديز :

وقد كتب سيسيموسن إلى البابا في روما يطلب إليه تعيين بطريرك كاثوليكي جديد ، فأوفد إليه الفاتيكان بعثة على رأسها الأب الجزويت الفونس منديز ، وكان إسبانيا كذلك . إلا أنه كان على النقيض من سلفه : متعسفاً ضيق الأفق . متعصباً إلى حد المغالاة ، فما كاد يمثل بين يدي النجاشي حتى أمر بعقد اجتماع يشهده النبلاء والأعيان وذوو الحيشة في البلاد ، وفي هذا الحفل المشهود اضطرب الإمبراطور للركوع أمامه إعلاناً لخضوعه لسلطة البابا في شخص البطريرك ، وهو موقف فيه مساس كبير بهيبة الملكية . . .

وبعد ذلك شرع منديز في إدخال تعديلات على المراسيم الملكية على الوجه الذي طالما نادى به الآباء الجزويت ، ثم أوقف جميع رجال الدين حتى يقوم برسائهم مرة أخرى . كما زعم أن صيغة التعميد التي كانت تنطق من قبل تنطوي على عبارات لا تمت إلى الكاثوليكية بسبب ، وعلى ذلك يتعين تعميم الأهالي من جديد !

ثم أعلن أن عملية الختان حرام ، وأسبغ بركاته على الكنائس ، وأمر بأن يستبدل بالمذابح المقامة فيها مذابح أخرى على التهج المتبع في روما ، محتجاً بأن بعض الصور المحفورة فيها لا تمثل القديسين ، ويغشى على رواد الكنائس من الزيف والانحراف إذا ما تطلعوا إليها .

وقصارى القول أن ذلك البطريرك لم يترك أمراً يسوء رجال الدين

والمؤمنين المحافظين إلا أتاها ؛ وشهد بذلك شاهد من أهله ، فقد ورد في تاريخ الآباء الجزويت أن حماسة منديز جاوزت حدود اللياقة ولم يراع فيها ذوق " ولا مجاملة !

ولقد أثار شعور الاشتراكي في نفوس الأحياء حينما أمر بنهب جثة راهب كان يسمو في نظر مواطنيه إلى مرتبة القديسين ، فأخرج جثته من الكنيسة وألقاها في الطريق بدعوى أنه لا ينتمي إلى الكاثوليكية ، وهو أمر يعتبر في نظره كفراً وإلحاداً !

وكان من أثر ذلك كله أن ثارت في وجهه مقاومات شديدة ، لم تلبث أن انقلبت إلى ثورات اشتعلت في مختلف أنحاء إثيوبيا ، ولم تكن تعبيراً عن سخط النبلاء فحسب . بل تعبيراً عن نفمة الشعب أيضاً . . .

وقد أخذ الإمبراطور سيسنيوس هذه الثورات واحدة تلو أخرى ، ولكن مرّجّل الغضب الشعبي لم يلبث أن انفجر على صورة حرب أهلية استمرت نيرانها في كل مكان بين أنصار النجاشي وأعدائه . . .

وإذ ذاك أخذ بعض أصحاب الإمبراطور ينصحونه بأن يعلن على الشعب خروجه على الكاثوليكية . قبل أن يرفع الجيش راية العصيان في وجهه ، فرأى النجاشي أن يعمل بالنصيحة لتهدئة النفوس الشائرة ، وأعلن الخروج عن مذهبه ، ولكن منديز صب عليه جام غضبه ، وأعلن في زجره وتأنيبه ، فلم يبق بعد ذلك في قوس الصبر مترع . . .

وفي أحد الأيام أذاع الإمبراطور نداء على الشعب جاء فيه أنه أراد

أن يعتنق رعاياه ديناً جديداً ، حال فيه اخداية والرشد ، ولكنه كان سبباً في موت الكثير من الزعماء والنبلاء وأفراد الشعب ؛ ولذا فهو يخلهم من هذه العقيدة ، ويدعوهم إلى التمسك بدين آبائهم . ولبعد رجال الدين الأرثوذكس إلى كنائسهم ، وقيموا مذابحهم . ويتلوا صلواتهم المألوفة ؛ ليكون ذلك برداً وسلاماً على القلوب . . .

أما وقد رد شعبه إلى الصراط المستقيم . واعترف بخطاياهم وأبرأ ذمته ، فما كان له أن يظل على العرش ، وهذا ما استقر عليه رأيه . إذ تنازل عن العرش لابنه باسيليدس . . .

أما ما كان من أمر باسيليدس بعد ذلك ، فقد علمه رأس الذئب الطائر ، وشهد بعيني رأسه كيف تمرغت سمعة أبيه في الأحوال على أثر تغيير دينه ، واتباعه وسائل العنف في إكراه الناس على الدخول في المذهب الجديد ؛ فسار على سياسة مختلفة تماماً عن سياسة أبيه ، وأثر في الوقت نفسه التسامح إزاء الكاثوليك . وترك الحبل لهم على الغارب دون أي ضغط على الأهالي ، على أن يكون كل إنسان حراً في اتباع المذهب الذي يروق له ؛ إلا أن النعرة الدينية كانت قد بلغت منتهائها ، ولم يكن ثمة سبيل إلى الأخذ بسياسة التسامح . فكاشف باسيليدس منديز بأن نيته قد استقرت على اجتثاث جذور الكاثوليكية في الحبشة ، فعلى الآباء الخزويت أن يرحلوا عن البلاد فوراً . وأن يتركوا كل ما في حيازتهم من أسلحة وذخائر . . .

وغنى عن البيان أنه اتخذ هذا القرار الحكيم لكيلا يدع فرصة

للنبلاء الذين ظلوا متمسكين بمذهبهم الحديد أن يوقدوا نار الفتنة ،
 اعتماداً على البرتغاليين ، أو أن يستنجد الجزويت بجيش من الخارج .
 ولم يكذب حدسه ، فقد طلب بعض الآباء الجزويت إلى حاكم الهند
 البرتغالي تجريد حملة قوامها ٤٠٠ رجل لاحتلال سواكن ومصوع ،
 ثم تنقض على الأراضي الحبشية لإعلاء كلمة الدين . . .

أما منديز وأتباعه المقربون فقد لاذوا بولاية (حنا آكاي) ،
 وكان وقتذاك ثائراً على النجاشي ، فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم
 في أول الأمر ، غير أنه - خشية غضب الإمبراطور وما يناله من عقابه
 إذا استبقاهم . واعتماداً على تأكيدات رسل الإمبراطور بصدور العفو
 عنه إذا ما قام بتسليمهم - آثر السلامة وتخلص منهم بأن باعهم لحاكم
 سواكن التركي . وباعهم هذا بعد ذلك الملك إسبانيا بربيع عظيم !
 وأما من بقى من الجزويت محتبساً في مختلف أرجاء الحبشة ، فقد
 تعقبهم النجاشي إلى أن قبض على أكثرهم . وكان جزاؤهم الإعدام بتهمة
 الخروج على طاعة سيد البلاد . . .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى الفاتيكان ، نسبت إدارة الدعاية هذا
 القتل الذريع إلى استبداد الجزويت الإسميان وسوء تصرفاتهم ، فأوفدت
 ستة من رجال الدين الفرنسيين إلى الحبشة . وحاول اثنان منهم بلوغها
 عن طريق مدغشقر . ولكنهما وقعا في أيدي الأهالي ، فتهبوا متاعهما
 وقضوا على حياتهما .

وتسلل اثنان آخران إلى داخل الحبشة عن طريق مصوع ، فما إن

اكتشفت حقيقة شخصيتهما حتى قتلا ومثل الأهلون بمجنتيهما .

ولما علم الزميلان الباقيان بما وقع : آثرا السلامة وعادا من حيث أتيا .
ولكى يضع النجاشي باسيليدس حداً لهذا المجادلات ، عقد مع
باشا سواكن اتفاقية تقضى بأن يقطع الباشا رأس كل من تسدل له
نفسه النزول إلى البر من رجال الدين الكاثوليك . في نظير بعض امتيازات
تجارية منحه النجاشي لباشا

وهكذا طويت هذه الصفحة من جهاد أصحاب المذهب الكاثوليكي
لنشر دعوتهم بين سكان الحبشة ؟

من هذا وغيره تولد الشك في نفوس الأحياء نحو كل ما هو
غريب عن ديارهم . ولم لا وقد أكرموا وفادة هؤلاء الرهبان بادئ ذي
بدء ومنحهم ثقتهم ، ودخلوا في مذهبهم زرافات ووحداً ، وأحلهم
من قلوبهم موضع التبجيل . فلما قويت شوكتهم وتوطدت أقدامهم
بفضل رعاية النجاشي ومؤازرته ، لم يُبقوا على تقاليد ، ولم يراعوا تراثاً ،
وأعملوا معاول الهدم في كل مقدسات القوم ليقيموا بناء مذهبهم الجديد
على الانقراض ، فهل كانت هذه التصرفات إلا وسيلة للتسلط والسيطرة
والبغي عن طريق الدين ؟

وكيف غاب عن هؤلاء الآباء الجزويت أن لكل شعب كرامته التي
يعتز بها إلى أبعد الحدود ، فلا يرضى المساس بها ولو كان ذلك باسم
الدين ؟

لو أن رجال الدين ساروا على نهج باييز ، فاقصر نشاطهم على

الناحية الثقافية : وعاملوا الأهلين بالحسنى . لاستطاعوا أن يبلغوا من البلاد
غرضاً ، ولكنهم أثاروا الريب في نفوس الأحباش ضد الأجانب ،
فنجوا بدينهم وباء الدخلاء بالإخفاق . . .

وهكذا تأصلت كراهية الكاثوليكية في أعماق النفوس . حتى جاء
إلى الحبشة . بعد مرور قرن ونصف قرن . رجالة إسكتلندي يدعى
بروس ، فكاد الأحباش يفتكون به . لولا أنه أقنعهم بأنه ينتمي إلى كنيسة
بعيدة عن البابا بعد السماء عن الأرض . فنجوا بهذه الدعوى من فتك
الأحباش !

الحبشة إبان القرن السابع عشر

أورد الآباء الجزويت كثيراً من البيانات عن حالة الحبشة في ذلك العهد : وكان من أوسعهم اطلاعاً وأدناهم إلى الحيدة في أحكامه : أب برتغالي يدعى بلتازار تيليز . قام بعد قرار إبعاد الجزويت والتشكيل بمن بقي منهم في البلاد . بوضع كتاب وصف فيه دولة الأحباش ، وتبدو خيبة الأمل واضحة بوجه عام لمن يتم النظر في ثنايا سطور هذا الكتاب ، إذ يزعم أن ظهور الكاهن يوحنا وانتشار عدله ، وذوبوع ورعه الشديد واستمساكه بأهداب المسيحية . ما هي إلا خرافات لا تستند إلى واقع ، كما يتهم سلفه الفاريز بالتضليل ورواية الأساطير كما ألقاها الأحباش ، فليست الحبشة في نظر المؤلف إلا بلداً فقيراً . وليس أهلها إلا نفراً من المتخلفين عن ركب الحضارة .

ولكن تيليز حين يقرر ذلك يتناسى تلك الحقبة التي انقضت منذ رحيل الآباء الجزويت عن الأراضي الحبشية على أثر الفتن الدينية التي كادت تودي بالأسرة الملكية الحاكمة . كما سبق أن قدمنا ، كما تنامي أن البلاد تعرضت خلال هذا القرن لغزوات الأمير أحمد تارة وقبائل الغالا الوثنية تارة أخرى . فأصبحت الدولة في ذلك العهد بنكسة شديدة ، وتبددت أموالها ، ونقضت أمجادها ، وانهار صرح الاستقرار

وضاعت هيبة الملكية والحكومة فيها . . .

ونحن نورد فيما يلي جانباً مما جاء في كتاب تيليز عن الحبشة ، يقارن فيه بين عظمة الرومان وبذخهم وثرأهم ، وبين تواضع ملوك الأحباش وتقشفهم وفقرهم ، فيقول في وصف ولية أقيمت بقصر النجاشي ، إنه قد مد سباطان . أحدهما صغير لصاحب الجلالة ، والآخر أكبر منه بقليل للآباء اليسوعيين ، ولم يكن فوق هذا أو ذاك غطاء من الدمقس ، ولا أطباق من الذهب ، ولما حان موعد العشاء أسدل رجال الحاشية ستاراً بين المائتين ، على حسب التقاليد المرعبة في الحبشة التي تقضى بالآل يرى أحد جلالة الإمبراطور وهو يتناول الطعام ، فيما عدا الخدم الذين يقدمون الصحاف بين يديه . ولقد توفر على خدمة الآباء اليسوعيين فرقة من النساء . ترتدى كل واحدة منهن ثوباً فضفاضاً من نسيج القطن الرخيص . ويحيط بخصرها حزام عربيض ينحدر الثوب من تحته في ثنيات تبدي مفاصل الجسد الأسمر ، وعلى يدها سلة من القش تحتوى على أنواع غريبة من الفطائر الخشوة باللحم أو برفائق من فواكه الأناناس والتفاح والكمثرى .

ثم تقبل طائفة أخرى من النساء يحملن أوعية من الفخار الأسود تحوى ألواناً من الحساء فيه قطع كبيرة من اللحم المسلوق ، وتغطي هذه الأوعية أغطية من الخوص هروية الشكل . . .

وعلى هذا تقتصر الفخامة الإتيوبية التي طالما أسهب في وصفها المؤلفون الأوائل ، فليس هنالك ملعقة ، أو شوكة ، أو سكين ، كما لم

يكن على المائدة ملح أو توابل أو مشيبات من أى نوع . . .

ويتحدث تيليز في فصل آخر من كتابه عن أراضي الحبشة وحدودها ،
فيرسم لنا صورة جلية عن سلطة الإمبراطور في مختلف الولايات ، إذ
يقول ان اثنتين من هذه الولايات تؤديان الجزية السنوية للنجاشي ذهباً ،
وهما ولايتا جوجام وإيناريا . وكثيراً ما كانت جزيرة إيناريا تضعع على
سيد البلاد . إذ كان يقطنها رجال قبائل الغالا في أثناء الطريق !

أما بقية الولايات فكانت تؤدى ما عليها جوباً أو خيولاً ، وكان
بعضها يعنى من تقديم الخيول لحاجة السكان إليها في الدفاع عن أنفسهم
واققاء شر المغيرين على أراضيهم ، فيستعاض عنها بالبقرة ، فتقدم للإمبراطور
بقرة عن كل عشر بقرات يملكها السكان كل ثلاث سنوات ، كما
تقدم قطعة من نسيج القطن طولها خمسة أمتار عن كل نول .

وكان للحكومة المركزية في بعض الأصقاع مكاتب لحماية الأموال ،
ولكن معظمها كان يدخل في جيوب الأمراء سادة تلك المناطق . . .

ويقول تيليز إن النظام الذى كان متبعاً من قبل بإسناد السلطة
التنفيذية إلى اثنين من ذوى الحظوة المقربين إلى النجاشي لم يبق معمولاً به
في القرن السابع عشر . إذ استبدل بهما رئيس وزراء يجمع بين سلطات
القائد الأعلى ونائب الملك . ويطلق عليه اسم (الرأس) .

ويصف تيليز حفلة تنويع الإمبراطور فيقول إن الركب الملكي
يقصد إلى كتدراثة أكسوم ، تتقدمه كتائب الجيش ورجال البلاط
وعيون البلاد وساداتها ، فإذا ما اقترب من الكتدراثة اعترض طريقه سرب

من العذارى التيبيلات يسألته : من عمالك تكون ؟ فيرد الإمبراطور قائلاً :
 إنني ملك إسرائيل ، من سبط يهوذا ! فيقلن : إنك لست بملك البلاد !
 فيرد النجاشي بأنه ملك صهيون ، وحامي الأراضي المقدسة ! وهنا تفسح
 الفتحات له الطريق ، وترتفع الختاغات تشق عنان السماء وتدوي طلقات
 الأعيرة النارية ، وتدق الطبول ، ثم يتقدم « أبونا المطران » يخف به
 الكهنة ، فيستقبلون النجاشي عند مدخل الكندرائية ، ويحيطون به إلى
 أن يصل إلى المذبح ، ثم يضع المطران على رأسه تاجاً يقول تيايز إنه
 شبيه بقبعة عريضة من الخمل الأزرق . تحليه زهور الزنبق وقطع من
 الأحجار الزائفة . ولا يحمل النجاشي في هذا الحفل سيفاً ولا صولجاناً ،
 وإنما يخفي رأسه حيناً يتم الفنداس ويبسغ عليه المطران بركات
 الكنيسة .

زمن العزلة :

صب الآباء اليسوعيون جام غضبهم على رأس باسيليدس ، فاتهموه
 بأنه قتل إخوته الأربعة والعشرين ، وحججوا دين آياته ، وكان من
 المسلمين !

ويضيف هؤلاء الآباء أن عهده شهد غزوات قبائل الغالا . واجتاح
 الجراد أراضي المملكة ؛ ولكن التاريخ لا يحمله وزر هذه الغزوات ،
 ولا إصابة أراضيهم بتلك الآفة . حتى لو كان هؤلاء الآباء من الصادقين ؛
 فليس في صفحات التاريخ المتوارث ما يدل على اشتداد غزوات الغالا

أو تفاقم هجوم الجراد في عهده على ما سبق من عهود .
 كما لم يثبت أن باسيليدس أشهر إسلامه ، وإذا كان قد تقرب من
 الملوك المسلمين وخطب ودهم فإنه لم يفعل ذلك إلا خشية عذر الأوربيين به
 واتقاء غزوهم لأراضيه .
 وليس ثمة دليل على أنه قتل إخوته . وإنما جرى على سنة آباءه
 فبعث بهم إلى حصن في ذروة الجبل كيلا يحكيوا له الدسائس ويكيدوا
 للعرش .

نعم إنه كان ملكاً مستبدّاً : قوى الشكيمة . ولكن كان لا بد
 للحبشة من ملك مثله يعيد الأمن إلى نصابه ويصلح ما جلبته الحروب
 الأهلية على البلاد من ويلات وشورر ، وما أنزلته باقتصادياتها من
 مصائب في عهد سلفه سيسنيوس . وقد حالفه التوفيق ، فشن خلال
 حكمه الذي امتد ثلاثة وثلاثين عاماً عدة حروب . ووطد أركان ملكه ،
 ونشر ألوية السلام في ربوع بلاده ، فأقام في غوندار على مقربة
 من بحيرة تسانا عاصمة جديدة للمملكة ، وظلت قائمة حتى منتصف
 القرن التاسع عشر : بيد أنه لم يهمل أكسوم ، عاصمته السابقة ، بل
 أعاد بناء كتدرايتها التي كانت قد تداعت وأصابها البلى إبان الحروب
 التي شنها على الحبشة الأمير أحمد .

وقد خلفه ابنه يوحنا ، الذي امتاز عهده بالسلم والرخاء : واستأنف
 المبشرون فيه جهودهم لنشر تعاليم الكاثوليكية بين سكان البلاد ، ولكنهم
 لم يفلحوا ، إذ كان النجاشي على غرار أبيه عدواً لدوداً لهم ، فجمع

كتب الآباء اليسوعيين وأمر بإحراقها . على أنه لم يكن أكثر تسامحاً
لإزاء المسلمين ، فأمر بتخصيص حى لهم فى العاصمة يلزمونه ويعيشون
فيه بمعزل عن بقية السكان .

ثم تولى العرش من بعده ابنه يسوع . فحكم الحبشة ٢٤ عاماً
(١٦٨٠ - ١٧٠٤) ، ويبدو أنه يستأهل لقب (الأكبر) الذى أضيف
لأسمه ، فقد كان محارباً عظيماً ، دون أن يكون نزاعاً إلى إراقة الدماء .
وتروى التواريخ الشعبية عنه أنه قام بإصلاح الإدارة الحكومية ، فقطع
دابر جباة الضرائب الجشعين ، ووجَّه التعريفة الجمركية فى مختلف
حدود بلاده ، وفعل ما لم يفعله ملك من قبله . فقام بزيارة إخوته وأبناء
عمومته الأمراء فى المثنى . وثفقت أحوالهم ، وتعرف على مقدار ما يعود على
كل منهم من إيراد يسلب الخراس جانباً كبيراً منه ؛ كما استمع لشكاواهم ،
وأعد لهم جميع وسائل الراحة والرفاهية فى متفاهم ؛ واستعاد سلطان التاج
على الكنيسة بعد أن تلاشى أو كاد بسبب تدين أبيه وخضوعه لسلطان
القساوسة ، فأعلن بصراحة أن للنجاشى وحده مطلق الحرية فى عقد
الجمع الكنسى أينما أراد ومنى أراد ؛ وأخيراً عمل على تخفيف موجة
اضطهاد الأوربيين التى طغت على البلاد إبان حكم أبيه وحده .

هذا ، وقد بذلت محاولتان فى سبيل استئناف العلاقات الدبلوماسية
مع فرنسا ، ولكنهما باءتا بالفشل ولم تأتيا بالثمرة المرجوة ، ومع هذا فإن
إحداهما جديرة بالرواية . . .

فقد ألح الآباء اليسوعيون على لويس الرابع عشر أن يوفد إلى بلاط

النجاشي بعثة تدعوه لإرسال سفارة إلى بلاط (الملك الشمس) ويصحبها عدد من شباب النبلاء والنبيلات الأحباش لتلقيهم الأصول المرعية في بلاط الملك .

فكان أن تلقى مسيو ماييه قنصل فرنسا بالقاهرة تعليمات من مليكه بالبحث عن رسول لائق يسافر إلى الحبشة ويرسم للسفارة طريق السفر إلى فرنسا ويذلّل جميع العقبات التي تعترض أعضاء هذه السفارة ، كما يوفر للسادة النبلاء والسيدات النبيلات وسائل الراحة حتى يصلوا إلى العاصمة الفرنسية .

وقد اتفق وقتذاك أن النجاشي يسوع كان يعاني التهاباً في غشاء البطن ، فأوفد إلى القاهرة رسولا يسعي وراء طبيب لعلاج الإمبراطور ، فالتهمز القنصل ماييه الفرصة وفتح صيدلياً من رعايا بلاده يدعى بونسيه في أمر السفر إلى غوندار . وقدمه بعد ذلك إلى « الحاج علي » رسول الإمبراطور على أنه خبير نطاسي بعالج الأمراض الباطنية ، ومن بينها التهاب غشاء البطن !

وزوّد القنصل الطبيب بونسيه بأوراق اعتماد تتضمن الأهداف الأخرى التي تسعى إليها البعثة الفرنسية ، ومنها إيفاد سفارة حبشية إلى بلاط الملك لويس الرابع عشر .

واصطحب بونسيه في رحلته أحد الآباء اليسوعيين بوصفه تابعاً له ، وسار الركب إلى الأراضي الحبشية ، فبلغها عن طريق سنار ، ثم تولى الطبيب علاج الإمبراطور فكان التوفيق حليفه ، ولكن النجاشي عندما

سمع باقتراح إرساله سفارة إلى فرنسا لم يأخذه على حمل الجدة ، إذ بدت له صعوبة اختراق أعضاء السفارة للأراضي العثمانية ، لاحتمال وقوعهم وهم النبلاء والنبيلات أسارى فى أيدي الأتراك ، فيتخذون منهم عبيداً وجوارى !

ثم كيف تأتيه بعثة من قبل ملك عظيم يقال إن الشمس لا تغرب عن ملكه . ولا تحمل إليه الهدايا الفاخرة التي لا يستغنى عنها فى العلاقات الدبلوماسية مع الملوك الشرقيين !

أجل ، لقد فرح الإمبراطور بشفاء علقته . ولا يأس من مكافأة أخيه ملك فرنسا على تلك اليد البيضاء . فليجزل العطاء لرسله ، وليحملهم إلى مليكهم أفخر الهدايا : أما إيفاد النبلاء والنبيلات إليه فأمر لا يسوغ أن يحول بخاطر لإنسان عاقل !

على أنه أوفد رسولا من لدنه يدعى مراد ، يدين بالإسلام ، وله إلمام باللغة الفرنسية : وكلى معلوماته عن الدبلوماسية مستفاد من اتصاله بأحد التجار الأوربيين فى حلب : فحمله النجاشى رسالة شكر لصاحب الخلافة ملك فرنسا على المنة التي أسداها إليه ، كما زوده ببعض الهدايا والعبيد ، وفيل صغير أسود ؛ ولما وصلت البعثة إلى القاهرة ، أراد القنصل الفرنسى بدافع من الفضول الاطلاع على خطاب الاعتماد الذى يحمله بونسيه ، فأبى بونسيه أن يتم ذلك إلا فى حضرة المليك ؛ فحقق عليه القنصل . وطلب إلى الوالى العثمانى مصادرة أوراق الاعتماد ؛ فاحتج الآباء اليسوعيون على هذا الافتيات على الأصول الدبلوماسية المرعية ،

وخشى الباب العالى أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والقسطنطينية ، فأوفدت حكومة القسطنطينية لجنة للتحقيق ، استعرضت الوقائع : ثم أصدرت حكماً بأن يتحمل القنصل ما يه نفقات البعثة العثمانية : تطبيقاً للقوانين التركية التى تنص بأن يكون الغرم على الجانب المدان . فاشتد سخط القنصل على بونسيه ، وآلى على نفسه أن يثير الشكوك من حوله حتى ينال من سمعته ، فرماه بالشعوذة والاحتيال . واتهمه بأنه لم يزر الحبشة ولم تغطأها قدماه !

غير أن بونسيه لم يأبه لهذه الاتهامات الرخيصة ، بل استأنف رحلته فى صحبة مراد ، حتى بلغ قصر فرساي ، فقبل السفير الفرنسى بين يدي مليكه ، وقدم الرسول المسلم إليه بوصفه سفيراً لملك الملوك . . .

ثم رفع تقريراً عما شاهدت عيناه وسمعت أذناه فى الحبشة ، إلا أن نفقة ما يه : القنصل الفرنسى بالقاهرة . كانت قد سبقته إلى البلاط ، فما لبث العلماء الفرنسيون أن شتوا حملة طاغية على التقرير وصاحبه قائلين إنه رواية من نسج الخيال . مؤيدين قولهم بأن اسم مراد ليس من الأسماء الحبشية ، ولا عجب فالرجل مسلم ، وهو إلى ذلك أرمنى الأصل . . .

وقالوا أيضاً إن غوندار عاصمة مزعومة لا وجود لها ، لأنها لم يأت لها ذكر فى كتب الآباء اليسوعيين ، وفاتهم أن جدد النجاشي اتخذها عاصمة لملكه بعد طرد اليسوعيين بنحو عشرين سنة !

وكان قد جاء فى تقرير بونسيه أن بالحبشة عدة مدائن كبيرة ، فى حين كان الشائع على ألسنة الآباء اليسوعيين ، أن المدينة الوحيدة فى

الحبشة هي أكسوم ، وأن سكانها يعيشون في الخيام !
 وجملة القول أن بونسيه أصبح موضع السخرية ، فلم يلبث طويلا
 حتى عاد إلى القاهرة يتدب حظه العاثر ومآل مشروعه الخاسر . . .
 هذا ما كان من أمر البعثة الأولى التي أوفدت إلى الحبشة وانتهت
 بالفشل الذريع ، ولكن الحكومة الفرنسية لم تقنع بهذه النتيجة ، بل
 أوعزت إلى قنصلها بالقاهرة أن يتولى قيادة بعثة أخرى إلى مملكة النجاشي ،
 وما كان ماييه ليرضى بأن يستبدل بنعيم القاهرة وعشاء السفر إلى بلاد
 مجهولة ، فاعتذر بأن صحته لا تحتمل القيام بتلك المهمة ، وأشار على
 باريس أن تتدب مكانه مسيو دي رول . نائبه بدمياط ، فما لبث
 دي رول أن تسلم تفويض حكومته وأوراق اعتماده بوصفه سفيراً لبلاده
 لدى إمبراطور الحبشة . . .

على أنه بالرغم من إقباله على مهمته وارتياحه لها ، كان يجهل كل
 شيء عن تلك البلاد وعادات سكانها وتقاليدهم ، وكان في الوقت نفسه ،
 على غرار مواطنيه ، يكنّ الازدراء لكل غريب عن بلاده ، فلم يكن
 لذلك بالشخص الذي يحسن لإضاده إلى الأمراء الأفريقيين .

وما كاد دي رول يبدأ رحلته حتى أخذت الغيرة تدب في النفوس ،
 فما كان رهبان الفرنسيسكان ليقرأوا عيناً بافتيات مثلى اليسوعيين على
 حقوقهم المكتسبة في الأراضي الحبشية ، وما كان المسلمون والأقباط
 ليرضوا باستئناف العلاقات بين ملك فرنسا وإمبراطور الحبشة ، فلا عجب
 أن يروح دي رول ضحية هذه العوامل الخدامة التي أحاطت به ، وأن

تقام في وجهه العقبات . فلا يتنقل من مكان إلى آخر إلا إذا دفع مالا . ولا يحل ببلد إلا تعقبته السلطات بطلب إبراز أوراق اعتماده وتحقيق شخصيته ، مع ما يصاحب هذه الإجراءات من إساءة وعسف . . .

وأخيراً وبعد طول عناء، بلغت البعثة بلدة سنار، فقبل أعضاؤها بخفاوة بالغة ، ودعى دى رول إلى قصر النجاشي ، حيث كان جلالته في انتظار ضيفه الكريم تحف به هالة من قربانه .

وكان أول نخطا ارتكبه السفير أن دعا سيدات البلاط لمشاهدة عجيبة المعجائب التي أحضرها بين هداياه : وما كانت إلا مجموعة من المرايا المضحكة التي يقف أمامها رواد مدينة الملاهي محسوخين مشوهي الخلق . قصاراً كالأقزام أو طوالاً كالعمالق !

وامتدت أبدي زوجات النجاشي إلى المرايا ، فلا تكاد إحداهن تطالع صورتها حتى تصرخ رعباً وتلقى بالمرآة على الأرض ثم تفر هاربة وهي توالول وتخفقها العبرات !

وارتفعت صيحات النساء تستنزل اللعنة على رأس « الساحر الأجنبي » وتطالب بتعذيبه وقتله !

وكانت هذه خاتمة : إذ أحاط به رجال الحرس وجروه إلى عرض الطريق حيث قتلوه وشلوا بجثته أشع تمثيل ، ولم ينج من المذبحة أحد من أعوانه : وكان رهبان الفرنسيين قد غادروا المدينة أثناء زيارة دى رول ورجال بعثته ، وبذلك لم يكن له من بينهم منقذ ولا معين !

وفي تلك السنة مات النجاشي يسوع ، وخلفه ابنه تكللا حايمانوت ، فلم يبق على العرش طويلا ، إذ تأمر عليه بعض النبلاء وقتلوه ، وجاء بعده عمه تاوفيلوس ، فشهّر سلاح الانتقام في وجه جماعة النبلاء الذين قتلوا ابن أخيه غدرًا ، وكان تاوفياوس قفلاً غليظ القلب ، فأشعل بغلظته مراجل الغضب في القلوب . وأخذت يواذر الثورة تبدو في الأفق . ولم تلبث أن اشتعلت حين وفاة الإمبراطور سنة ١٧٠٠ ، وأطاح النبلاء بملك الأسرة السليمانية التي حكمت البلاد منذ عام ١٢٧٠ . ونادوا بالرأس جوستوس ، حاكم مقاطعة تيجرى ، إمبراطوراً على الحبشة . . .

ولكن النبلاء ما لبثوا أن فاصبوا إمبراطورهم العداء وراحوا يمحكون له الدسائس ، على حين كان في نظر الشعب غاصباً ، فلما أقعده المرض سرت إشاعة في الجيش بأن النبلاء يزعمون تنصيب ابنه مكانه على العرش ، فاشتعلت نيران الثورة ، ونادى الجيش يداود ابن النجاشي يسوع ملكاً ، فدخل مدينة غوندار في موكب حافل ، وعاد الملك إلى الأسرة السليمانية بين تهليل الشعب وتكبيره .

وكان أول تدبير اتخذه النجاشي الجديد لإرضاء لشعبه ، أن أمر بإعدام رجال الدين الكاثوليك الذين أكرم سلفه جوستوس وفادتهم ومنحهم حرية التبشير بمذهبهم .

وضاق بالأعيب رؤساء الأديار الذين كانوا يثيرون النفوس على العرش والكنيسة ، فاستباح دماءهم وسلط عليهم كتاب جيشه التي تضم جنوداً

من قبائل الغالا الوثنية ، فعبثوا بالأديار وذبحوا الرهبان فلم يبقوا منهم على أحد !

ومات التجاشي بعد أن حكم خمس سنوات ، فبايع الجيش أخاه أسما جورجي بن يسوع الأكبر : الذي أطلق عليه فيما بعد لقب الجبار : إذ آلى على نفسه أن يكسر شوكة النبلاء ويقضى على نفوذهم : فجرد عليهم حملة قاسية أطاحت بسلاطنتهم وشردت أسرهم ، وجعل أزمة السلطة في الولايات بأيدي رجاله المخلصين .

وعلى الرغم من صرامته وشدة معاملته لخصومه — ولعلهما السبب في مقارنته بأمير المؤمنين هرون الرشيد في الأناضول — الشعبية الحبشية — كان كثيراً ما يلجأ للحيلة في الكشف عن أعدائه وخصومه ، فبدعى الموت ، حتى إذا عرف القادر والخائن والمتربص من أعدائه ، خرج من مخبئه وانقض عليهم فأعمل في رقابهم السيوف !

وكان يخرج في الليل متنكراً لتنفذ أحوال رعاياه ومعرفة ما يقال عنه وما يشاع حوله ، والكشف عن منافسيه ، ويقال إنه في إحدى هذه الجولات الليلية تعرف على الفتاة التي شاطرته الملك ، وحملت التاج معه وحدها ، دون حليمة أخرى أو خليعة ، على غير ما كان يفعله آباؤه وأجداده الأباطرة .

ويقال في تفصيل ذلك إن وطأة الحمى اشتدت عليه ذات ليلة في إحدى القرى القريبة من بلدة سنار ، فأواه سيد القرية وأحاطه برعايته ، وظلت ابنته (برهان منجازا) إلى جانب فراشه طوال الليل تقوم على خدمته

فلما طلع عليه النهار كشف لرب البيت عن شخصيته وطلب إليه يد ابنته ،
فزفت إليه في غوندار بعد قليل .

وتروى الأساطير عنه أنه شاهد في إحدى جولاته الليلية شاباً في مقتبل
العمر يغسل ثوبه في مياه مستنقع ، فاقرب منه . وكان الحر شديداً ،
وطلب إليه أن يغسل عباءته هو أيضاً . فلم يبد الفتى تذمراً ، بل أقبل
على غسلها راضياً قرير العين ، وفي هذه الأثناء أخذ النجاشي يناقشه في
شئون الدولة ، ويعيب بعض تصرفات الملك ، فما كان من الفتى إلا أن
ألقى إليه بعباءته قائلاً له إنه كان يغسل رداء رجل يظن أنه عابر سبيل
مسكين . ليكون له ثواب الخير . فإذا بهذا الرجل يعيب على ابن الكنيسة
الإمبراطور أعمالا أنهاها ولا لوم عليه في إتيانها . ومثل هذا الرجل لا
يستأهل خيراً ولا يستحق أن تسدى إليه يد !

فما لبث النجاشي أن كشف له عن شخصيته واصطحبه إلى غوندار
حيث أسند إليه مهام منصب كبير في الدولة . فكان هذا الفتى من أعظم
أعوان الملك من بعد وأقربهم إلى قلبه .

ويروى أيضاً أنه قابل شيخاً في إحدى الليالي يستنقع الرمل ويتكهن
بالمصائر . فسأله عما ينبغي القدر لسيد البلاد ؛ فقال الشيخ : سيرزق
النجاشي ولداً ، ولكن هناك شخصاً يدعى (وليتا جورجى) لا يجرى في
عروقه الدم الملكى . سيحكم الحبشة ثلاثين عاماً بعد موت
الإمبراطور !

فعاد النجاشي إلى عاصمة ملكه كاسف البال حزينا : ثم أمر بقتل

كل من يحمل هذا الاسم الشائع من بين رعاياه ؛ ثم من الله عليه بـغلام ، فأفصى بسر النبوة إلى زوجته . فإذا بها تضحك في وجهه وتقول له إن اسمها عند تعييدها هو ولينا جورجي . أي (أينة جورجي) ، وهي كما قال الرمال تعيش في كنفه في القصر الإمبراطوري . وليس من المستبعد أن تحكم الحبشة باسم أيتها الطفل . إذ ما قدر لأبيه . بعد عمر طويل ، أن يموت . ولم يكذب الشيخ عند ما قال إن الدم الملكي لا يجري في عروقها ! وما يُعَدُّ ذكره أن الملكة الأم هي نفسها التي قصت هذه النبوة على بروس (الرحالة الإسكتلندي) بعد أربعين عاماً من وفاة زوجها النجاشي أسما جورجي .

كيف تداعت الملكية :

وتحققت نبوءة العراف . فمات النجاشي عام ١٧٢٩ بعد أن حكم عشر سنوات . ولم تجد الملكة عناء في المناداة بطفلها ملكاً على الحبشة باسم يسوع الثاني ، فشهدت البلاد طوال عهده الذي امتد حتى عام ١٧٥٣ تقلص نفوذ الأسرة السليمانية الحاكمة وأقول نجمها ؛ فقد أثارت الملكة الأم حفيظة النبلاء ؛ إذ أسلمت زمام السلطة لغير من أقاربها قللتهم أرفع المناصب ؛ هذا إلى خور طبيعتها وضعف شكيمة في كبح جماح الثائرين وإزالة مخفط النبلاء ؛ واضطرابها أخيراً لقبول الحلول الوسطي مع جماعة الأرستقراطيين ؛ مما أدى إلى استرداد نفوذهم الذي كان قد تلاشى في عهد قريبها أو كاذ .

ولما بلغ يسوع الثاني مبلغ الرجال ، ظهر أنه لم يرث عن أبيه الصلابة والدهاء والحرص على الاستئثار بالحكم ، بل كان ناعماً ليناً ، يقضى معظم أوقاته في الصيد والقتص ، ويهوى الغنون الجميلة ، ويقتنى التحف النادرة ويدفع فيها غالى الثمن ؛ وتجمع حوله نفر من اليونانيين الذين كانوا قد لجأوا إلى الأراضي الحبشية إثر اضطهاد الأتراك لهم ، فاستعان بهم في إعادة بناء القصر الإمبراطورى على ربوة عالية ، وتزين جدراته بالصور والزخارف . وقد زار المؤرخ الإسكتلندى بروس قصر النجاشى ، وأبدى إعجابه بهندسته وأبهائه الواسعة التى جلب الإمبراطور المريا من فينسيا لتزين جدرانها ، كما جلب لوحات من إيطاليا تحمل أسماء كبار الفنانين . . .

وكان يسوع يقضى الساعات الطوال في قصره الحديد غير عانى بمهام الدولة ، فجلب على نفسه نقمة رعاياه وازدراء رجال الجيش الذين أطلقوا عليه لقب « الصغير » على سبيل التنذر ، على قبض جده الذى أطلق عليه من قبل عن جدارة لقب يسوع الأكبر .

وكان الناس يرمونه بالتخلف ، وينظّمون في وصفه الأزجال المليئة بالسخرية ، فما كان منه إلا أن جرد حملة لتأديب العصاة في ولاية سنار ، ولكنه هزم هزيمة منكرة وأبىد جيشه عن بكرة أبيه ، ففر هارباً إلى عاصمة ملكه !

وكان المطران قد مات في هذه الأثناء ، وخزائن الدولة خاوية ، نتيجة لتزوات الإمبراطور وتفرقه ، فاضطر لفرض ضريبة على الكنائس تجبي من روادها ، لسد نفقات رحلة المطران الحديد من القاهرة إلى الأراضي الحبشية !

وقد لاقت البعثة التي أوفدها النجاشي إلى مصر مصاعب جمة ، وبلغت نفقاتها أرقاماً خيالية ؛ إذ اغتال نائب مصوع أموال البعثة التي كانت مخصصة للسلطات المصرية ، واضطر أعضاء البعثة للتزول في ميناء جدة ، ففرض الشريف عليهم قنواً كبيراً من المال ؛ وكانت ثلاثة الأثافي اعتقال المطران الجديد في مصوع ، فأقام فيها فترة حتى احتال يوناني من رجال النجاشي على تيسير قراره !

ولم يكن نائب مصوع ليجرؤ على سجن المطران لولا تشجيع سيده الرأس ميخائيل سوهول ، صاحب ولاية تيجري ، الذي كان مسيطراً على المنطقة الساحلية ، يجبي المكوس ويستول على ما يحلو له من واردات الحبشة ، لاسيما الأسلحة والذخائر التي كان يزود بها جيشه ، حتى أصبح لا يشق له غبار ولا يستطيع جيش النجاشي مواجهته . . .

وكانت الملكة الأم ، كما قدمنا ، تحقد على طبقة النبلاء ، فعقدت لابنها النجاشي على فتاة من قبائل الغالا التي تنتمي إليها الإمبراطورة نفسها ، فلما مات زوجها عام ١٧٥٣ ، تسلمت مقاليد السلطة من الملكة الأم ، وحكمت البلاد باسم ابنها جواس ، وأسندت أسمى المناصب إلى أبناء عشيرتها من قبائل الغالا ، وعينت أخويها حاكبين على ولايتي أمهرا وجوجام ، فما لبث الشعب أن ثار عليهما ، فقتل أحدهما وفر الآخر ، ورأى النجاشي أن لا حيلة له إلا بالالتجاء إلى سوهول ، حاكم المناطق الساحلية ، ذي القوة والبأس ، فعينه نائباً عنه على أراضي المملكة بأسرها ؛ وساق سوهول جيوشه على أعداء الإمبراطور فنكل بهم ، وبذلك

أشعل نار الضغينة في قلوب الأهالي على النجاشي جواس ، ثم ما لبث أن نادى بتكلا حايما نوت إمبراطوراً على الحبشة ، في الوقت الذي وصل فيه المؤرخ الإسكتلندي بروس إلى قلب العاصمة . . .

وقد رسم بروس صورة قاتمة للإمبراطورية في ذلك العهد ، فذكر أنها كانت مقطعة الأوصال ، منهوكة القوة ، بثر المغيرون أطرافها من كل جانب ، وانقض عليها أعداؤها بلغون في دماؤها وينهشون لحمها ؛ وانقطعت سبل المواصلات بين أجزائها الموالية للإمبراطور والمعادية له ، واستقل بعض الحكام والرؤوس بولاياتهم فلم يعد أحد منهم يؤدي الجزية ، وضاع الحق وكلمة الدين وسط الحروب الأهلية التي أنهكت قوى الإمبراطورية وتركتها مضعضة عليلة .

وفي ذلك العهد لم يكن للحبشة أعداء يخشى بأسهم سوى الغالا ، أما من عداهم من مسلمي الصومال ، الذين كافوا في وقت من الأوقات ذوى حول وطول ، فقد زال خطرهم باضممحلال الدولة العثمانية التي لم يعد احتلالها مصوع إلا مظهراً شكلياً وصورة زائفة ، إذ نزل الأتراك عن الحكم لزعم قبائل البيدجا التي تضرب بالقرب من الميناء ، وصدر فرمان بتعيينه نائباً في نظير جزية سنوية للباب العالي ، أما جنود الحامية الأتراك فقد زالت عنهم صفة الجندية منذ ارتبطوا إلى أهالي المنطقة بالمصاهرة ؛ وقد تهكم عليهم بروس عندما وصف ثيابهم المهلهلة التي لا تكاد تستر العورة ، ووهم يزعمون مع هذا بمعجدهم السالف حينما كان يطلق عليهم اسم الأنكشارية ! وما كان أيسر على الأحياش أن يطيحوا بهذه الزمرة من أشباه

المحاريين ، لولا رغبة حكام مقاطعة تيجرى في الإبقاء عليهم ليشغلوا منهم ستاراً يتوارون وراءه كلما وقعت أحداث يخشى إلقاء تبعثها عليهم أو يكون لهم ضلع فيها . . .

أما فيما عدا هذا فقد ظلت حالة البلاد على ما كانت عليه من قبل : سلطان الكنيسة واسع ، ولا يكاد المسافر ينطلق من بلد إلى آخر حتى يطالعه دير أو كنيسة ، والمطران محوط بنفر من يسعون إلى مناصب الكنيسة ، والكاثوليك مغضوب عليهم .

وعلى الرغم من تداعى سلطة الناج ، فقد كان النجاشي محوطاً بهالة من المظاهر الملكية ، يخرج من القصر على صهوة جواد ، أو ممتطياً بغلاً ، فإذا ما ذهب إلى الكنيسة سار مترجلاً ، وإذا جلس في ساحة القضاء أسدلت على وجهه غلالة سميكه ولزم الصمت وتكلم بدلا منه ضابط من الحرس يطلقون عليه اسم (صوت النجاشي) . وكانت ساحة القصر الملكي تجمع بالوافدين إليها من المتقاضين وأصحاب الشكاوى قبيل الظهر ، فترفع الأصوات بعبارة « اقض بيننا يا صاحب الأمر قينا ! »

ويقول بروس إن معظم المحامين كانوا من الأفاقين الذين يرتادون المجالس ويروون القصص الشعبية ويستغلون غفلة العامة !

فإذا ما انعقد مجلس الدولة جلس الإمبراطور في صندوق خشبي كبير يلاحظ خلال فتحانه وثغراته هيئة القضاء التي تجلس إلى مائدة مستديرة ، ويلى كل منهم برأيه في القضية على حسب أهمية مركزه بالترتيب التصاعدي ، فإذا ما تعددت الآراء كان الرأي الأخير للنجاشي

يحملة (صوته) إلى الهبشة.

وكانت الأحكام صارمة قاسية ، كما كان من المألوف أن تبتز ذراع المجرم أو ساقه أو تقفأ عينه ، فإذا أدين شخص بتهمة الخيانة قضى عليه بالأعدام ، ولا تجوز مواراة جثته الثرى ، بل يلقي بها في عرض الطريق ! وكثيراً ما كان يحدث في أثناء الثورات أن يتعرّ الإنسان في الطريق بأشلاء متناثرة من جثث المحكوم عليهم بالخيانة ، والضبباع تنهبها في الليل ، والغربان تحوم حولها في وضح النهار !

أما سلاح الجيش في ذلك العصر فكان قاصراً على السيوف والرماح ، كما كان الحال في القرون الوسطى ، ولم يكن مزوداً بالأسلحة النارية إلا جنود كتيبة واحدة من الحرس الإمبراطوري النظامي .

وكان للنجاشي حرس خاص يتألف من بعض العبيد وجماعات من المرتزقة الغريباء ، وكان لحكام الأقاليم في أغلب الأحيان جيوش مجهزة بأسلحة أحدث مما كان يستخدم في جيوش الإمبراطور !

فإذا أمر صاحب الجلالة بالتعبئة العامة ، أذاع على الرؤوس وحكام الولايات ثلاثة بيانات ، يوصى في أولها بشراء البغال وتجهيز الخدمة وإعداد الزاد والمؤن ، ويأمر في الثاني بإزالة الأشواك والعقبات من جميع الطرق لأن النجاشي لا يعرف إلى أين يقود جيوشه ، ثم يصدر البيان الأخير بأن الإمبراطور يعسكر في مكان كذا ، ومن لم يوافقه إليه استحق غضب الملك وكان حسابه عسيراً !

صراع بين كبار الزعماء

١٧٧٠ - ١٨٧٠

عاش الرحالة بروس في ظل رعاية الرأس ميخائيل عامين ، شهدت فيهما البلاد صراعاً دموياً وثورات متعاقبة أفضت مضاجع الناس ، فترك الكثير منهم ديارهم بعد أن فقدوا أموالهم ومناعمهم ، ولم يطق بروس العيش أكثر من ذلك في الحبشة فقر منها ، سالكا الطرق الوعرة حينا وضاربا في تيه الصحاري أحيانا ، حتى وصل إلى سنار ، ومنها إلى لندن ، حيث أذاع على الملأ ما شهد في الحبشة وما سمع من رواة الأخبار عن تاريخها ، ولكن بعض الناس ظنوا أن رواياته من نسج الخيال فلم يعيروها التفاتاً ولم يعولوا عليها لغرابتها وبعدها عما كان يرويه الآباء اليسوعيون ويستدعه خيالهم الخصب عن أبهة الملك وعظمة القصر الإمبراطوري .

فلما دب اليأس في قلبه انزوى وآثر العزلة في إحدى قرى إسكتلندة ، حيث وضع مذكراته وترجم ما ترجم من المخطوطات الحبشية التي أحضرها معه والتي صارت فيما بعد من المراجع التاريخية الجدية المعتمدة .
ولنعد الآن إلى تلك الفترة العصيبة التي مرت بالبلاد ودامت زهاء قرن من الزمان :

كان الرؤوس والحكام يناصرون هذا التجاشي أو ذاك ، فيضعون

التاج على رأسه ثم لا يلبثون أن يخلعوه ، وفق أهواشهم وتبعاً لما لهم من نفوذ .
وغدت هذه التغييرات مألوفة ، فكان في الحبشة عام ١٨٠٠ ستة من
الآباطرة على قيد الحياة ؛ فلا عجب إذا استبدت الحيرة بهنرى سولت ،
أحد أعضاء البعثة الإنجليزية التي عهد إليها الملك الإنجليزي جورج الثالث
كشف البحر الأحمر ، حينما نزل إلى الأرض الحبشية فلم يتعرف على
مليكيها الذي يجب أن يقدم إليه هدايا ملكية وأوراق اعتماده ؛ فلما رأى
الطريق إلى غوندار غير مأمون ، قدم الهدايا وأوراق اعتماده إلى حاكم
ولاية تيجرى !

وكان المطالبون بالعرش في مستهل القرن التاسع عشر أربعة كباراً :
سيد مقاطعة تيجرى الواقعة في شمال الحبشة الغربي ، وسيد ولاية
أمهرا الذي كان يضفي حمايته على الإمبراطور ، وحاكم ولاية جوجام
بجنوب بحيرة تسانا ، ثم سيد مقاطعة شوا الواقعة شرقي البحيرة .

وفي عام ١٨٥٠ لم يبق من هؤلاء الأقطاب سوى اثنين ، بعد أن مات
الآخران في أثناء الحروب الأهلية ، وبذا أصبح التنافس بين الاثنين
الباقين دون غيرهما ؛ ولكن الناس في تقدير واقعته في تدبير ، فقد طرأ على
الموقف منافس جديد من الأشراف المغمورين ، فمالبت أن انتزع السلطة
من أيديهما معاً وحكم البلاد باسم تيودور !

وظلت الحروب الأهلية مستمرة في سائر أنحاء البلاد ، إلا أن سلطان
النجاشي الجديد كان يزداد اتساعاً على مدى الأيام ، فبسط نفوذه على
مقاطعتي غوندار وجوجام ، ولم يبق له منافسون ذوو بأس سوى رأس

مقاطعة تيجرى ، وحاكم ولاية شوا ؛ وكان كلاهما ظامعاً في العرش ،
 يبنى إزاحة الآخر عن طريقه ، إلى أن ظهر الرأس كاسا (تيودور) ،
 واستمال إليه المطران ، وعاهده على طرد جميع المبشرين الكاثوليك من
 الأراضي الحبشية ، فقام بتتويجه وأذاع على الناس أنه ظل الله على الأرض !
 ولما استتب له الأمر ، نقل العاصمة من غوندار إلى مجدالا ،
 الواقعة على المنحدر الشرق من الهضبة الحبشية ، وقام بتحصينها ،
 وأعاد بناء الكنائس التي كانت قد تهدمت خلال الحروب الأهلية .

وكان النجاشي تيودور يضع نصب عينيه ثلاثة أهداف آلى على
 نفسه أن يبلغها مهما كلفه الأمر حتى يوطد أركان ملكه : كسر شوكة
 النبلاء ، وإكراه قبائل الغالا على اعتناق المسيحية ، ثم إبعاد المسلمين
 الذين يابون الارتداد عن دينهم إلى خارج البلاد . . .

وما كانت هذه الأهداف بعسيرة البلوغ على شخص مثل تيودور ،
 خلق ليكون زعيماً مسموع الكلمة ، قوى البأس ، شديد التعصب لدينه ،
 فما زال بأعدائه حتى أفنهم أو اتخذهم أسرى ، ودان له الرؤوس وحكام
 الأقاليم النائية ، وبلغ أوج سلطانه خلال عام ١٨٦٠ ، فتملكه الغرور ،
 وأرغى العنان لغرائره الشريرة « فراح يعاقب بنت الحان ليلا ونهاراً ، واتخذ
 لنفسه عشيقته من الغالا ، ما كان ليتورع عن عرض مبادلته معها جهازاً ،
 ثم تسلط عليه الوهم ، يصور له أنه محوط بأعداء يحبكون له الدمائس
 ويعملون على اغتياله ، فيطش بهم دون ذنب جنوه ، ويحرق الناس
 بالآلاف أحياء !

ولم تكن أنباء هذه المباديل والمذابح تصل إلى أوروبا إلا بعد حين ، مشوهة مبتورة « حزارتها وتفقد عناصر إثباتها ، وتتلشى آثارها في خضم الأحداث العالمية . . .

من أجل ذلك كانت الحكومة البريطانية على جهل بالأمور عند ما أوفدت الكابتن كامرون عام ١٨٦٢ إلى البلاط الإمبراطوري ، ليخطب ود النجاشي ويقدم إليه وساماً رفيعاً من الملكة فكتوريا .

فلما حظى الرسول بالمثل بين يدى النجاشي ، حمله نحياته إلى ملكة الإنجليز ، وكاشفه بأن سياسته تستهدف القضاء على الأتراك والمصريين ، واقترح على صاحبة الخلافة في كتابه إليها أن يوفد سفارة حبشية إلى عاصمة ملكها . . .

وكان إهمال وزارة الخارجية البريطانية الرد على الكتاب الإمبراطوري ، هو السبب الرئيسى فى فشل الحملة التى جردها الإنجليز على ماجدالا ، فعند ما وصلت أنباء نزولها على البر عام ١٨٦٤ ، طلب تيودور أن يأتوه برد ملكة الإنجليز على كتابه ، فلما قيل له إن جلالته لم تحمل قائد الحملة هذا الرد « نازت كرامته واعتبر هذا الإهمال اهانة موجهة إلى شخصه ، فصب جام غضبه على رأس الكابتن كامرون ومحببه ، وأمر بسجنهم فى قلعة ماجدالا !

فجردت لندن حملة انتقامية على النجاشي تحت قيادة سير روبرت نايبير ، فترلت إلى البر جنوبى مصوع على مسيرة ٥٢٠ كيلو متر من قلعة ماجدالا « بيت القصيد ، وقد لاقى الإنجليز أهوالاً لا حصر لها

في هذه المناطق الجبلية الوعرة ، إذ كانوا يتسلقون ذرا الجبال الشاهقة ،
فتمترض طريقهم الاتحاديد العميقة التي يحرس أعاليها نفر من جنود
النجاشي لا يتجاوز عددهم في أغلب الأحيان أصابع اليدين . . .
وأخيراً تقابل الجيشان ، وكان الإنجليز يعسكرون في واد عميق ،
والأحباش يسيطرون على قمة الجبل وسفحه الذي ينحدر إلى الوادي ،
وظن تيودور أنه بالغ من أعدائه ما يريد ، وإذا بنيران المدفعية الإنجليزية
تحصد رجاله كسابل القمح ، فيساقطون بالئات حول جواده ، ولما رأى
الإمبراطور اندحار جيشه وتخلف الرؤوس الأحباش عن نعدته ، أطلق
على نفسه رصاصة أودت بحياته ، فدخل الإنجليز ماجدلاً صبيحة يوم
عيد الفصح عام ١٨٦٨ .

وكان هم سير روبرت إطلاق سراح الإنجليز المعتقلين = فوجد معهم
الإمبراطور يوحنا الثالث ، وكان قد قضى في السجن عشرين عاماً ، فاستنجد
بالقائد الإنجليزي ليعيد إليه عرشه المقتصب ، ولكن نايبير أعرض عنه
ولم يعره التفاتاً ، فما كان له وقد أنجز مهمته المحدودة أن يقم نفسه
فيما لا يعنيه من شئون البلاد ، فحمل من غنائم القصر ما خف حمله
وغلا ثمنه ، وعاد على رأس جيشه إلى شاطئ الصومال ، بعد أن قضت
الحملة في الحبشة نيفاً واثني عشر شهراً . . .

النجاشي يواجه الدول الأجنبية

١٨٧٠ - ١٩١٦

انتهى الصراع بين الرؤوس وحكام الولايات بارتقاء الرأس تيجرى
عرش الحبشة باسم يوحنا الرابع عام ١٨٧٢ .
وكان على غرار سلفه تيودور ، بطلا متواراً لا يشق له غبار في ساحة
الوغي ، ويتمحلى بفصائله دون مباله ، غير أنه لم يجد فرصة لإنجاية واحدة
ليضع مواهبه في خدمة بلاده ، فقد كان أكثر الوافدين عليه من الأجانب
في ذلك العهد من ذوي المآرب السياسية : يجلبون له الآلات والمعدات
والأسلحة الحديثة من بارمنجهام ولبيزج وليل وبروكسل ، ليتخذوها وسيلة
لعرض مشروعات معاهدات سياسية أو اتفاقيات تجارية مع حكومات
بلادهم ، فظل طوال عهده على حذر وتر بص من هؤلاء الأجانب الطامعين
في خيرات بلاده البكر !

وكانت مصر أول الدول التي فاصبته العداة وشهرت الحسام في وجهه ،
فقد كان إسماعيل خديو مصر في ذلك الوقت على عكس سلفه سعيد :
شديد الطموح واسع المطامع ، فأوعز إلى الباب العالي أن يتنازل له عن
سيادته السورية على شاطئ البحر الأحمر ، في مقابل مبلغ من المال ؛
ثم أرسل حملة إلى تلك الأصقاع فاحتلت بربره وهرر ، وبذلك حاصر

أملاك النجاشي يوحنا الرابع من الشرق والجنوب ، ثم قرر أن يتجه صوب الشمال ، فانطلق الجيش المصرى إلى المناطق الجبلية حيث اعترضه الأحباش الذين يمتازون بمعرفة دروب الجبال ومسالكها والقتال فيها ، فغلبوا على المصريين (١٨٧٥ و ١٨٧٦) دون أن تحسم الأمور بين الفريقين فى معركة فاصلة .

وظلت الجبهة المصرية هادئة خلال ست سنوات ، حتى نشبت الثورة العراقية عام ١٨٨٢ واحتل الإنجليز مصر ، ثم اشتعلت ثورة المهدي ، فاستولى الدراويش على السودان من الخرطوم حتى حدوده الجنوبية ، غير أن هؤلاء الجيران الجدد لم يكونوا ليثيروا قلق يوحنا الرابع ، بل لعله رأى فى وجودهم على تخوم مملكته مزية لا يستهان بها ، إذ نصح الإنجليز للحكومة المصرية بعد مصرع غوردون فى الخرطوم ، بالعدول عن مشروعاتها فى جنوب البحر الأحمر ، فانسحب المصريون من مدينة هرر والمنطقة الساحلية ، فزال بذلك العقبات التى كانت تحول دون توسع الجبهة .

على أن بوادر خطر آخر كانت قد ظهرت فى الأفق ، فقد شقت قناة السويس عام ١٨٦٨ ، فأصبح البحر الأحمر طريقاً ملاحياً دولياً له خطره وأهميته ، بعد أن كان بحيرة مغلقة ، كما اشتد الصراع الاستعماري بين الدول الأوروبية التى لم تترك مكاناً خالياً فى أفريقيا إلا عملت كل ما تستطيع لتوطيد أقدامها فيه .

فكانت النتيجة أن وجد يوحنا الرابع بلاده محصورة بين أسوار مثلث من المستعمرات الأفريقية : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ،

وكل دولة منها تسعى بكل ما تملك من قوة وجلة للقضاء على استقلال الحبشة التي كانت في اعتبار الاستعمار الأوروبي يومئذ شوكة في الجنب ، ولكن عبء الدفاع عن هذا الاستقلال لم يقع على عاتق يوحنا ، بل على كاهل خلفه منليك الذي كان قد فر من المنفى في عهد تيودور ونادى بنفسه أميراً على مقاطعة شوا ، ثم ظل بعد ذلك بمنأى عن الحروب الأهلية التي اشتبك فيها بقية الأمراء وانتهت بارتقاء يوحنا الرابع عشر الحبشة . . .

وقد اصطفى منليك مستشاراً فرنسياً له ، فنصحته بأن ينتهر فرصة صراع الأمراء حول العرش ليوسع رقعة إمارته ويضم إليها أراضي الغالا الغنية الواقعة على تخوم المقاطعة جنوباً وغرباً .

وكان هناك جماعة من الأفارقة الفرنسيين ، فأخذوا يشترون الأسلحة القديمة من الأسواق الأوربية ويبيعونها للأمير بأضعاف أثمانها . . .

ولم يقنع منليك بالغارات أو الحملات التأديبية ، بل كان غزوه لتوسيع رقعة ملكه ، وكلما دانت له مدينة أقام فيها حامية من جنده يبيعون الرقاب بالمال ويفرضون الجزية .

ولما ترامت أنباء هذه الغزوات إلى يوحنا الرابع ، رأى أن يتفق مع منليك اتفاقاً لشره ، فعقد معه اتفاقية حددت فيها أملاك الطرفين في عام ١٨٨٢ ، وزوج ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاماً بابنة منليك (الأميرة زاوديتو) التي لم تكن قد بلغت السابعة بعد ، كما نصت الاتفاقية على أن يخلف منليك يوحنا الرابع على عرش الحبشة !

وكان الإيطاليون آخر من جلس في مأدبة الاستعمار في أفريقيا

الشرقية ، فاشترت إحدى الشركات الإيطالية ميناء عصب الصغير فوق
 بوغاز باب المندب ثم باعتها لحكومة روما ، وأوفدت الحكومة الإيطالية
 إلى منليك بعثة لعقد اتفاقية تجارية ، بغية الحصول على مساعدة الأمير
 في دعم حركة التبادل التجاري في هذه المناطق .

وفي ١٨٨٤ احتل الإنجليز ، لمدة قصيرة ، المنطقة الساحلية المسماة
 بإريتريا حالياً ، وكانت الحاميات المصرية معسكرة في هذه المنطقة منذ
 عهد الثورة المهدية ، فلما تم لهم إجلاء المصريين عنها ، غادروا البلاد
 وأوعزوا إلى الإيطاليين أن يعملوا على توسيع رقعة أملاكهم في المنطقة
 الساحلية واحتلال ميناء مصوع ، وكان المهاديون قد تنازلوا عن هذه
 المنطقة نفسها للإمبراطور يوحنا الرابع !

فلما نزل الإيطاليون إلى البر في ١٨٨٥ أدرك النجاشي أن وراء
 الأكمة ما وراءها ، وأن ذلك التبادل التجاري المزعوم لم يكن إلا قناعاً زائفاً
 يخفي وراءه مشروعات استعمارية خبيثة ، تهدف إلى التغلغل في صميم
 الأراضي الحبشية بدعوى حماية طرق القوافل .

وحدث في ذلك الحين أن قبض أحد الرؤوس في ولاية الشمال على
 أعضاء بعثة علمية إيطالية كانت قد تسللت عبر الحدود في ولايته ،
 فأرسلت الحكومة الإيطالية فرقة مؤلفة من ٥٠٠ جندي لإنقاذ أعضاء
 البعثة ، ولكن الأحباش كانوا لهم بالمرصاد ، فاشتبكت قوات الطرفين في
 معركة دوجالي (٢٦ يناير ١٨٨٧) التي أبيد فيها الإيطاليون عن بكرة أبيهم !
 ولما وصلت أنباء هذه الهزيمة إلى روما ، أصيبت الحكومة بذهول ،

ثم بادرت بإرسال حملة عسكرية إلى مصوع للتأثر ، وحاول الإنجليز أن يحولوا دون القتال فلم يفلحوا ، إذ كانت القوات الإيطالية قد تجاوزت حدود الحبشة وتوغلت في أراضيها . . .

وكان الرأي - فيما يبدو - قد استقر على تدبير جديد يهدف إلى التفاهم مع منليك واستمدائه على الإمبراطور يوحنا ، فأوفدت القيادة الإيطالية إليه بعثة تخطب وده وتطلب منه العون ، في نظير مده بالمال وتزويده بالأسلحة والمناداة به إمبراطوراً على الحبشة ، على أن ينزل للإيطاليين عن ميناء أسمرة ، وعن شريط من هضبة تيجرى يرفع من قيمة المستعمرة الإيطالية الفقيرة ، فقبل منليك المال والأسلحة والذخائر ، ولكنه لم يحرك ساكناً ولم يشعر سيقاً في وجه مواطنه الذي كان سيخلفه على عرش الحبشة عاجلاً أو آجلاً . . .

وقد حققت الأيام آماله عند ما اشتبك الأحباش بالمهديين في معركة كادت الدائرة فيها تدور على رجال المهدي ، لولا رصاصة أصابت مقتلاً من يوحنا ، فلب الذعر في صفوف رجاله وفروا هاربين ، وانقلبت هزيمة المهديين نصراً . . .

وقد أفاد منليك من حالة الفوضى التي شاعت في البلاد على أثر هذه الهزيمة ، كما قنع المهدي بما كتب له من نصر ، مكثفاً من الضئيلة بوقوع جثة يوحنا في يده ، فبادر بإرسال سيفه إلى أم درمان إعلاناً للفوز في المعركة . . .

وفي أثناء ذلك أقام الإيطاليون عدداً من المخافر الأمامية في أعالي

البلاد ، وساعدوا منليك على المناداة بنفسه ملكاً للملوك ، وعندئذ لم يبق لمنليك عدو أو منافس يخشى بأمره ، ولما كان يتمي إلى إحدى بنات النجاشي داود الذي حكم فيما بين ١٥٠٨ و ١٨٤٠ فقد اعتبر من سلالة الأسرة السلطانية الملكية ، وخلال له الجوقصار صاحب الكلمة المسموعة ، مؤيداً بقوة رجاله وجيش حليفه رأس مقاطعة شوا .

وما لبث الإيطاليون أن عقدوا مع النجاشي معاهدة أوشياي التي تهيئ لإيطاليا أن تكون صاحبة السلطة ، وأن تسيطر على الحبشة حماية واقعية ، فقد نصت إحدى مواد هذه المعاهدة على : أن يلجأ النجاشي لوساطة الحكومة الإيطالية في كل مفاوضات تجري بين حكومة بلاده وحكومات الدول الأجنبية !

ولم يمض على توقيع هذه المعاهدة شهر حتى أوفد منليك ابن أخته الرأس ماکونزن حاكم هرر إلى روما ، حيث عقد مع الحكومة الإيطالية اتفاقية تقضي بأن تفرض إيطاليا النجاشي أربعة ملايين من الفرنكات (حوالي ١٦٠ ألف جنيه) ، بضمان المكوس التي تجبها جمارك هرر ، وفي حالة التوقف عن سداد الدين ، تصبح هرر ملكاً لإيطاليا !

وأرسل هببرت ملك إيطاليا إلى النجاشي هدية تتألف من ٢٨ مدفعاً و ٣٨ ألف بندقية (وهي الأسلحة التي استعملها فيما بعد وأدت إلى مذبحه عدوة التاريخية) .

وفي اليوم التالي أذاعت إيطاليا على العالم أجمع أن الحبشة أصبحت تحت حمايتها !

وفى ١٨٩٠ ، تحرك منليك على رأس جيشه لقمع ثورة قام بها الرأس مانجاشا ، حاكم مقاطعة تيجرى ، ولما تم له النصر وتوطدت قدماءه ، أوفد رسلا إلى بعض البلاد الأوروبية لحس نبض حكوماتها توطئة لعقد اتفاقيات معها ، فاستجابت له فرنسا وروسيا ، وأوفدنا مندوبين عنهما إلى الحبشة لإجراء المفاوضات ، فاحتجت إيطاليا احتجاجاً شديداً ، وبادرت بإيفاد الكونت أنتونى إلى النجاشى لإبلاغه أن هذا التصرف من جانبهِ يعتبر خرقاً لمعاهدة أوشيالى ، فكان رد الإمبراطور : إن نص المعاهدة باللغة الأمهرية هو الوحيد الذى له الحجية ، ويقضى بأن يكون « للإمبراطور الحق فى استخدام وساطة إيطاليا . . . إلخ » ، لا كما يرمع النص الإيطالى الذى يوجب هذه الوساطة .

وسكت الإيطاليون على مضض ، بيد أن نشاطهم ازداد خلال السنوات الثلاث التالية ، وانضمت للنجاشى نياتهم السيئة ورغبتهم فى مناوئته والكيد له وتوسيع رقعة إريتريا على حساب أراضيه ، فاستشاط غضباً وقرر أن يقضى على هذا العبث بحمد السيف ، فلما شعر الإيطاليون بذلك ، عملوا على إرضاء النجاشى ، فأرسلوا له هدية من الذخيرة مقدارها مليونان من القذائف ، وكان ذلك غاية أمانى الإمبراطور ، فلما لبث أن قام بوفاء هذا الدين أعلن فتح معاهدة أوشيالى ١

وقد بسطنا فيما سبق ، الظروف التى لا هست النزاع الإيطالى الحبشى فى كتاب (زعماء العصابات الاستعمارية) ، فكتفى هنا بالإشارة إلى أن حاكم مقاطعة أريتريا (باراييتيرى) أساء تقدير قوة النجاشى ، كما كان

يعتمد في تديره على ثورة الحكام والرؤوس على مليكهم في حالة اشتباك القوات الإيطالية مع جيش النجاشي ؛ ولكن منليك كان أبعد نظراً وأوسع حيلة من خصمه ، فأذاع على زعماء العشائر وحكام الولايات منشوراً دورياً قصص فيه ألاعب الاستعمار الأجنبي ومشروعاته الخبيثة ؛ فأثار هذه المنشور موجة من الوطنية أشعلت النفوس حمية وحاسة ؛ فالتفت القلوب حول منليك ، ووقفت جيوش الأمراء على أهبة الاستعداد لمعاونته حين تحين الساعة الموعودة . . .

وفي ٢٢ فبراير ١٨٩٦ تسلّم باراييتري برقية من كريسي رئيس الوزراء يطالبه فيها بنصر حاسم على جيوش « البرابرة » ، فقرر القائد الإيطالي أن يهاجم عدوه (عاصمة ولاية تيجري) على غرة ، واختار لذلك يوم عيد ديبى (أول مارس) ظاناً أن جميع أفراد الجيش سيهرعون في ذلك اليوم إلى المدينة المقدسة (أكسوم) ، وأن ما لديه من عتاد عصري كفيّل بالقضاء على قوات النجاشي « على نحو ما حدث في عهد سير روبرت نابيير الإنجليزي . . .

وبزغ فجر ٢٩ فبراير وقوات باراييتري ، وتتألف من ١٤٥٠٠ مقاتل ، تهاجم عدوة من ثلاث جهات ، وتربط فرقة منها فوق ربوة عالية تطل على واد صيق ، وتحيط ثلاثها بالتلال التي تقع عليها مدينة عنوة . وقد خيل للقائد العام أنه سيطر على الموقف تماماً ، حين فوجئ بحجم من النار تتساقط على جناحه الأيمن ولا يدري من أين تأتيه ، وإذا برجال النجاشي يتسلقون سفح الربوة من جميع نواحيها ، فتناثرت طلقات

بنادقهم تحصد الأرواح ، فدب الذعر في صفوف الإيطاليين وانحدروا نحو الأخاديد الضيقة التي يملك الأحباش نواصيها ، فانهالت عليهم القذائف النارية وتكدست الجثث بعضها فوق بعض ، ولم يسلم من المجزرة الهائلة سوى فلول خيالة من الإيطاليين !

وتصل أنباء الهزيمة المتكررة إلى روما ، فيشتد السخط على كريسبي ، وتعالى الصحف في تقدير قوة منليك العظيم ومدى فوزه على البيض ، وتنخفض الجباه ذلاً وعاراً . . .

ولسنا نجد في وصف تلك الحالة الأليمة في إيطاليا ، أروع مما كتب جبريل دافونزيرو شاعر إيطاليا وأحد الناجين من معركة عدوة ، في رسالة بعث بها إلى جندي سبق فيما بعد إلى جحيم أفريقيا ، يقول له فيها : « عليك يا بني أن تمحو العار الذي لحق بمواطنيك على أيدي الأحباش ، فإزال أثر الكى في جسدك ، وسيتبقى حتى مماتي ! »

واضطرت إيطاليا لتوقيع معاهدة الصلح المهيينة في أكتوبر ١٨٩٦ وفيها تعترف بفسخ معاهدة أوشيالي وسيادة الحبشة الكاملة على أراضيها ، واستقلالها التام . . .

وأعاد النجاشي ١٨٦٥ أسيراً إيطالياً ، جعل الأحباش أكثرهم خصياناً مجرياً على تقاليدهم ، على الرغم من نواهي منليك ! هذا ما كان من أمر الأسرى الإيطاليين ، أما الأسرى من سكان المستعمرة الذين كانوا يحاربون في صفوف الإيطاليين ، فقد اعتبروا خوفاً ، وأمر الإمبراطور بيتر أذرعهم اليمنى وسيفانهم اليسرى !

وعلى الرغم من ذلك نص في ملحق معاهدة الصلح على أن المفوضين الإيطاليين يعترفون بأن الأسرى لا قوا على يد إمبراطور إثيوبيا رعاية تامة ومعاملة إنسانية كريمة ، كما أنفق عليهم من ماله الخاص ، ويترك جلالة الإمبراطور لحكومة روما حرية تقدير النفقات التي تحملها جلالته ، ونعويقه عما بذل من نصحيات في سبيل هؤلاء الأسرى !

وكانت ثمرة النصر أن ظهرت الحبشة على خريطة العالم دولة ذات كيان وبأس ، وهذا منطلق القوة الذي لا يعترف الأوروبيون بغيره ، فاضطرت الدول الأوروبية إلى إيفاد مبعوثيها المفوضين إلى أديس أبابا (ومعناها : الزهرة الجديدة) التي بناها منليك عام ١٨٨٣ للإمبراطورة ، فصارت عاصمة للإمبراطورية الحبشية منذ ذلك العهد .

وكان الفرنسيون أول من هرعوا إلى العاصمة ، فقصده إليها حاكم الصومال الفرنسي ، وأعقبه الأمير هنري أورليان حاملا إلى الإمبراطور هدية رائعة من رئيس الجمهورية الفرنسية ، ثم توالى حضور رجال الأعمال من شتى الأجناس ، وقامت حرب دبلوماسية شعواء بين مبعوثي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، كل يبغى بسط نفوذه والاستئثار بخطوة التجاشي ، وكان للفرنسيين أوفر حظ من ذلك ، إذ فازت إحدى شركاتهم بامتياز الخط الحديدي بين جيبوتي وهرر ، ولم تلبث الشركة أن تنازلت للحكومة الفرنسية عن حقوقها ، فأثار هذا غضب الإمبراطور وحمله على إهمال المشروع لكيلا يدع مجالا لتدخل إحدى الحكومات الأجنبية في شئون بلاده الداخلية . . .

وبعد أربع سنوات تم الاتفاق (عام ١٩٠٦) على أن تتولى فرنسا إنشاء الخط بين جيوتي وهرر ، على أن يتحول البريطانيون والطلبان الحق في إنشاء خطوط فرعية تمتد من هذا الخط الرئيسي شمالاً وجنوباً إلى مستعمراتهم ، وهي مشروعات ظلت حبراً على ورق ولم تخرج قط إلى حيز التنفيذ ، على أن الخط الرئيسي نفسه قد صادفته عقبات فنية ومالية وسياسية فلم يصل إلى أديس أبابا إلا في غضون عام ١٩١٨ .

وكانت بريطانيا الدولة الثانية التي أولت الحبشة بالغ الاهتمام ، بعد هزيمة الإيطاليين في عدوة ، فأوفدت بعثة برياسة رينيل رود ، حملت إلى النجاشي هدايا ثمينة حظيت بتقديره وقالت إعجابه ، على عكس شعور الرأس ماكونن الذي كان يحذر الإنجليز ويقول عنهم إنهم كالقط : إذا داعبته استكان وبقي على ألفته ، فإذا أبعدته أنشب أظفاره في يدك ! وقد نجحت مداعبة القط ، فظفرت البعثة الإنجليزية باتفاقية حسمت مشاكل الصومال الإنجليزي ورسمت الحدود بينه وبين الحبشة .

وفي عام ١٩٠٢ نجح الإنجليز في الحصول على حقوق في مياه النيل الأزرق الذي يحمل مياه الأمطار الحبشية الغزيرة ، والطمى الذي يجي تربة مصر والسودان ، حيث يزرع القطن الذي يغذى مصانع لانكشير ، وقد تعهد الأحباش بالآلا يقدموا على عمل من شأنه تحويل مجرى النيل الأزرق ، في أي جزء من أجزائه ، إلى أن يلتقي بنهر النيل ، وبقيت الحالة على ذلك فلم يخطر ببال أحد أن يقيم على بحيرة تسانا خزاناً لضبط مياه الفيضان قبل الحرب العالمية الأولى .

ثم جاء الروس ومبعوثو السلطان العثماني إلى بلاط النجاشي في أعقاب الإنجليز ، كما عاد الظليان يعرضون عليه مشروعات عمرانية لإتماء موارد الحبشة . وحتى الدراويش أوفدوا إليه رسولا ، فأصبحت أديس أبابا قبلة الأنظار ، يحج إليها الأجانب من كل حذب وصوب ، على أن منليك لم يكن يركن إليهم أو يثق في مشورتهم ، بل كان يكرم وفادتهم ويلزم في الوقت نفسه جانب الحذر منهم ، فإذا منع امتيازاً لبعض الأجانب حرص على أن تكون نصوصه فضفاضة لتحتمل جميع التأويل . وإذا استشعر عبثاً أو التواء في القصد قبض يده ونكت بوعده . . .

وكثيراً ما كان يؤجر الأراضي الواسعة ويقبض الإيجار سلفاً ، ثم لا يتورع عن تأجير الأراضي نفسها لشركة أخرى ، وحجته في ذلك أن رجال القبائل يتشاهمون فيما بينهم على حقوق كل منهم في المرعى ، فلم لا يتفاهم الأوروبيون ؟ وهكذا كانت عقود الامتيازات الممنوحة لا تساوي قصاصات الورق التي كتبت عليها ، فيما عدا النذر اليسير منها ، كامتياز الخط الحديدي القرمزي ، وامتياز بنك الحبشة الذي ظفر به البنك الأهلي المصري في سنة ١٩٠٥ ولم يزل مزدهراً واسع النشاط حتى اليوم .

على أن منليك كان يزداد جشعاً كلما تقدمت به السن ، وكان يفرض الضرائب الباهظة على المتاجر ، ويلج في مرور البضائع عبر بلاده حتى يتقاضى عليها العوائد ، هذا إلى دأبه على توسيع رقعة ملكه ،

فامتدت ممتلكاته إلى منطقة بنى شنجول التي تطل على حوض النيل الأبيض غرباً ، وخضع له أمراء (كافا) العصاة ، وبالاختصار : امتدت حدود الحبشة إلى بحيرة رودلف ، وجرى حملات تأديبية على سكان الصومال الذين كانوا تحت قيادة الزعيم محمد عبد الله الشهير بالمجنوب .

وكان قواده يعمدون مظفرين من غزواتهم ، حاملين إليه مصورات جغرافية عن مناطق مجهولة تحيط بمملكته ، فيضع عليها خاتمه ويعتبرها ضمن أملاكه ، ثم يأخذ في مساومة الدول للاعتراف بحقوقه عليها ، كلما وجد فرصة سانحة للمساومة ، وماذا يضر بعض الدول إذا اعترفت للنجاشي بملكية بلاد لا تربطها بها رابطة وليس لها فيها مصلحة ، مادام هذا الاعتراف يهيئ لها فرصة للظفر ببعض الامتيازات في بلاد النجاشي ؟

وعلى كل حال ، فقد سجلت الخرائط الحديثة تلك الأراضي المجهولة ضمن أملاك الحبشة ، فأصبحت حدودها واضحة المعالم إلا من ناحية الصومال الإيطالي ، وكان هذا هو السبب الذي أدى إلى الاضطرابات التي وقعت في منطقة (وال وال) وتولدت عنها شرارة الحرب الإيطالية الحبشية في أواخر ١٩٣٤ .

وقد قلنا فيما سبق إن منليك قد صار يعد دعوى الحماية الإيطالية على الحبشة ، شديد الخطر من الأجانب ، لا يقبل أى مساس بحقوق السيادة أو باستقلال بلاده ، ولكن هذه الصلابة بدا عليها الوهن عندما

اشتدت عليه وطأة الشلل الذي أصابه عام ١٩٠٦ وأقعده عن العمل والتفكير بعد عامين . . .

ففي مستهل مرضه ، مات ماكونن رأس مقاطعة هرر ، ومانجاشا رأس تيجرى ، وكان لكل منهما أولوية ارتقاء عرش الحبشة بعد منليك ، وكان نفوذ ألمانيا وقسطنطينية في أديس أبابا ، فقلقت الدول الأوربية صاحبة المستعمرات المحيطة بالأراضي الحبشية ، وتناوضت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، على غير علم من النجاشي ، وانتهت مفاوضاتها باتفاقية تفصى باعتراف هذه الدول باستقلال الحبشة ، إلا إذا حدثت مناسبات طارئة أو تغيرت الأحوال داخلياً ، فإن لكل دولة من هذه الدول - في هذه الحالة - الحق في اتخاذ التدابير الكفيلة بصون مصالح رعاياها ، على ألا تنفرد دولة من الدول الثلاث بالأمر إلا بعد مشاورة الدولتين الأخريين ، كما تناولت الاتفاقية تحديد مناطق النفوذ في الحبشة لكل دولة من الدول الثلاث ورسمت لها حدوداً دقيقة !

ولما نمي إلى النجاشي خبر هذا الاتفاق استشاط غضباً ، ولكن المرض كان قد سلبه الخزم والجرأة ، فخضع للأمر الواقع ، وكتب إلى حكومات لندن وباريس وروما يشكرها على إبلاغه أمر الاتفاق الذي عقد بينها ، واعترافها باستقلال بلاده وسيادتها !

وعلى الرغم من مرضه الشديد احتفظ بمقاليد الحكم ثمانية عشر شهراً بعد هذه الاتفاقية ، إلا أنه في خريف ١٩٠٧ عين حكومة تعاونه على تصريف شئون البلاد ، وفي الصيف التالي دعا جميع الرؤوس لعقد

اجتماع مشهود ، أعلن فيه أن الخلافة من بعده للصبي لييج يسوع ، البالغ من العمر اثني عشر عاماً ، على أن تكون الوصاية عليه للرأس تيساما . ثم قال إن هذه هي رغبته الأخيرة ومن عصاها نزل عليه غضب الله والكنيسة ، ومن عصا أوامر ولي عهده استحق اللعنة السماوية !

وحين تراخت قبضة منليك ، بدأت الدسائس تحاك ، وصراع النفوذ يستعر ويشد أواره ، ومؤامرات الرؤوس تستفحل وتتسع حلقاتها ، غير أن الحوف من الإمبراطور العليل ، واحتمال استرداده لقواه كان يحول دون المضي في مناوراتهم .

وفي غمرة هذه الأحداث ، كانت الإمبراطورة تايو قد جمعت زمام السلطة بين يديها ، وكانت جديرة بما اتصفت به من بطولة ، منذ قادت بنفسها فرقة اشتركت في تأديب الثوار بمقاطعة تيجري عام ١٩١٢ . . .

وكان أول ما بهم تايو أن تحمل رؤوس الحبشة على الاعتراف بالأميرة زاوديتو إمبراطورة على عرش الحبشة ، بدلا من لييج يسوع ، بدعوى أنها ذات مواهب نادرة وقدرة عظيمة على تولى شئون الحكم ، ولكنها لم تغلج في إقناعهم . . .

ولم تلبث الفوضى أن عمت ، واستفحل الفساد ، وانتشرت تجارة الرقيق إلى حد دفع الدول الأوروبية إلى الاحتجاج ، وهكذا أخذت تنحى مسحة المدنية الحديثة التي اتسمت بها الحبشة في عهد منليك وعهد خليفته لييج يسوع الذي لم يدم طويلا ، ولم يبق منها إلا آثار

قليلة ، لنظام البريد « والشبكة التليفونية ، وغاز الاستصباح الذى يستخدم فى إنارة بعض الطرقات الرئيسية فى العاصمة ، ثم تطعيم السكان ضد وباء الطاعون البقرى ، وضد الجدري الذى أصاب البلاد فى مستهل ١٩٠٣ .

ولم يكن ليح يسوع يشبه سلفه فى قوة الشكيمة واتساع الحيلة ، ومع هذا فقد تولى العرش قبل أن يتم السابعة عشرة « بعد موت الوصى وقرار مجلس الوزراء بأنه أصبح راشداً ولا داعى لتعيين وصى جديد عليه ، فحكم البلاد وسط تيارات الدساتير المتلاطمة ، وكان فاسقاً ، زير نساء ، فقام على رأس نفر من الحاشية برحلة طويلة إلى مقاطعة (جميرا) الإسلامية ، حيث عقد على عدد من المفتيات ، أو اشتراهن بحاله ، ولا يعلم إلا الله طبيعة هذه الصفقات التى عقدها ، فإنها صفقات لا شبيه لها فى الأمم المتحضرة .

ثم لم يلبث أن اعتنق الإسلام ، فأثار بذلك سخط الرؤوس ، وراجت عنه الشائعات المختلفة ، وزاد الطين بلة حينما طرد المستشارين الذين كانوا عوناً لأبيه منليك ، فاشتعلت بسبب ذلك كله نيران الثورة فى مختلف أرجاء البلاد . . .

وقامت الحرب العظمى ، فظلت الحبشة بمنأى عنها ، لأن الدول الأجنبية كانت فى شغل شاغل بما هو أهم . . .

وفى عام ١٩١٦ أذاع ليح يسوع أنه من سلالة النبی محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وأمر كتاب القصر أن يضعوا لنسبه شجرة تمتد إلى

الدول ، تأييداً لدعواه ، ثم لبس العمامة وانتطق بالخنجر كما يفعل
الأمراء المسلمون ، وطلق زوجته المسيحية ، كما طلب إلى محمد
عبد الله المجذوب أن يزوجه ابنته . ثم قدم إلى قنصل تركيا علم الحبشة
الجديد ، وعليه عبارة (لا إله إلا الله) ، وطلب إليه أن تكون بلاده
خاضعة لسلطة شيخ الإسلام بالقسطنطينية .

وكان مبعوثو الدول يرقبون تصرفات النجاشي الشاب بعين الحذر ،
ولا يستطيعون القيام بعمل مشترك خشية أن يثير الإمبراطور طوائف
المسلمين ويعلن الجهاد الديني . فبجابه الحلفاء متاعب لا قبل لهم بها في
مختلف أنحاء العالم .

أما الفريق الآخر الناقم على النجاشي ، فكان على رأسه حاكم
مقاطعة شوا ، الذي انتهر فرصة غياب ليح يسوع في المناطق الجنوبية
من الحبشة لتأليف جيش يستخدم في محاربة الحلفاء إلى جانب الأتراك ،
فتقدم على رأس جيش كبير إلى العاصمة ، ثم طلبوا إلى المطران أن
يحلهم من يمين الولاء الذي قطعوه للنجاشي ليح يسوع ، ونادوا بالأميرة
زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة على الحبشة ، على أن يكون الراس تيفرى
ابن ماكونن وصياً عليها ولياً للعهد بعدها

وهذا ما حدث ، فقد منح المطران الإمبراطورة الفتية بركاته ،
وشلح ليح يسوع وأخبرجه من ظل الكنيسة ؛ فلما علم النجاشي المخلوع
بذلك ، حمل أمواله وفر إلى بلاد الدناكل . . .

المملكة الحديثة

(١٩١٦ - ١٩٣٤)

وأقيمت حفلات تنويع زاوديتو في ١١ فبراير ١٩١٧ ، وفي اليوم التالي تودى بالرأس ولدسوجرس وصياً على العرش ، وقبل تعليلاً لذلك إن الرأس تيفرى ما زال حدثاً ولا يستطيع أن يحمل أعباء هذا الشرف العظيم ... ولكن القصر الإمبراطوري لم يلبث أن شهد صراعاً بين تيارات النفوذ الثلاثة : نفوذ الإمبراطورة الشابة ، والوصى ، وفتنورارى وزير الحربية ، ولكل من هؤلاء نفوذ وأنصار تجعل قواهم متعادلة فلا سبيل إلى التمييز بينهم ...

لقد نشأ تيفرى وترعرع في قصر الرأس ماكون ، حيث تسلت أضيواء المدنية الحديثة ، فتعلق بها ، وجعل هدفه أن تصبح الحبشة ذات يوم دولة عصرية ؛ ولكن ما إذا يصنع الأمير المجدد إزاء العنصرين المحافظين في القصر : اللذين لا يرضيان إلا بأن يظل القديم على قدمه ؟ إذن فليعمل تيفرى على استكمال أسباب المدنية في مقاطعة (هرر) ، حتى يحين الأوان ونهياً له الفرصة لارتقاء العرش ، وله إلى أن يحين ذلك اليوم « أن يتنقل أينما شاء في مختلف البلاد الأوروبية ، ويحلب منها كل حديث للملكة الموعود ، فزار الإنجليز في عدن عام ١٩٢٣ ،

وركب الطائرة أمام أفراد الحاشية وهم ينظرون إليه في ذهول ، وفي السنة نفسها سافرت زوجته وإيزارو مانان إلى القاهرة وحجبت إلى القدس ، وفي العام التالي أبحر تيفرى إلى إنجلترا ، حيث استعاد تاج النجاشي تيودور الذي كان سير روبرت نابيير قد غنمه بعد فوزه على الأبحاش .. أما فيتورازى وزير الحربية ، فكان على التقيض : محافظاً ، لا يقبل عن النظام الإقطاعى بديلاً . . .

وأما الإمبراطورة ، فكانت تزيد أعداء التجديد حتى وفاة فيتورازى سنة ١٩٢٦ ، ثم أمسكت العصا من وسطها ، فاتخذت لنفسها مستشاراً ألمانياً ، ولكنها لم تلبث أن أقصته حينما تألب عليها مجلس الوزراء وهدد رئيسه بتقديم استقالته ، ومنذ ذاك الحين لزم جانب الحيلة ، معتمدة على مهابتها بوصفها ابنة منليك العظيم ، إلى أن فاجأها الحظ بما لم يكن فى حسابها ، إذ وقع ليع يسوع أسيراً فى يد قائد جيوشها ، فجاء به إليها ذليلاً صاغراً يطلب العفو والمغفرة . وكانت الإمبراطورة تود من صميم قلبها أن تتخلص من هذا الخصم العنيد ، لولا المرسوم الذى أصدره منليك وبفضى بالألا يحكم بالإعدام على أى أمير تجرى فى عروقه الدماء الملكية ، فإذا تصنع ؟ ليس لها من حيلة إلا أن تسلمه لأحد الرؤوس فينزل به قضاءه إذا أراد ، فتزداد مهابتها بذلك ، إذ تستنزل السخط على الرأس الذى يناقشها فى السلطة ، وتبقى لها كرامتها .

وسمع زعماء العشائر فى مقاطعة هرر بما تتويبه الإمبراطورة ، فأوفدوا إليها رسولا يستحلّقها ألا ترسل أسيرها إلى الرأس تيفرى ، وإلا

كانت العواقب وخيمة . . .

وأخيراً استقر رأى الإمبراطورة على أن تعهد به إلى الرأس كاسا حاكم مقاطعة تيجرى . فأرسلته إليه مكبلاً بالسلاسل الذهبية ، على مقتضى التقاليد في معاملة أفراد الأسرة المالكة . . .

ولما مات وزير الحربية عام ١٩٢٦ ، كان الرأس تيفرى قد استكمل أسباب البأس ، وزود بجيشه بالأسلحة الحديثة ، وقضى على الرؤوس الذين كانوا يسعون إلى اقتناص السلطة واحداً بعد واحد ، فدان له الجميع ، وخضعت زاوديتو للأمر الواقع ، فوافقت على تنويجه نجاشياً . . . ولم يكن صوت تيفرى مسموعاً في مجالس الحكم ، حتى ذلك الحين ، إلا في شئون الدولة الخارجية ، وكان قد سمع أثناء مفاوضات الصالح في فرساي أن المناقشات تناولت بعض المسائل الإنسانية ، ومن بينها تحريم تجارة الرقيق ، وعمليات تهريب الأسلحة بوسائل غير شرعية ، فخشى أن يتعلل الأجانب بشيء من ذلك فيتدخلوا في شئون الحبشة ، فبدأ له ، بناء على نصيحة بعض مستشاريه الأوربيين ، أن يبحث حكومة بلاده على أن تتقدم بطلب لقبولها عضواً في عصبة الأمم . . .

ودار حول مشروع عضوية الحبشة نقاش طويل في عصبة الأمم ، فعارضت إنجلترا وسويسرا والنرويج وأستراليا ، بدعوى عدم توافر البيانات عن الحكومة الحبشية وقدرتها على الضرب على أيدي تجار الرقيق ومهربى الأسلحة ، وأيدت فرنسا وإيطاليا قبولها ، فقال مندوب فرنسا إن قبولها سيؤدي إلى تعزيز سلطة الحكومة المركزية ، ويكون حاقراً لها على تحريم

تجارة الرقيق . وقال مندوب إيطاليا : إن تجارة الأسلحة غير محرمة ، وإلا فلن على الدول الأوروبية أن تمنع رعاياها من تهريب الأسلحة إلى قلب أفريقيا ! وبعد لآى فازت وجهة النظر الفرنسية الإيطالية ، وقبلت الحبشة بإجماع الآراء عضواً في عصبة الأمم ، مع بعض تحفظات قليلة ؛ وسرى فيما بعد أن هذه العضوية كانت غنماً للأحباش ؛ فقد كان لإنجلترا وإيطاليا مصالح هامة في تلك البلاد ، فالأولى ترنو إلى بحيرة تسانا وضبط مياهها ، والثانية تريد وصل مستعمراتها في الصومال والحبشة بخط حديدي يمر بقرب أديس أبابا ، وتمتلك إيطاليا شقة من الأرض على جانبيه .

ودارت المفاوضات بين الدولتين خلال عام ١٩١٩ ، غير أن مركز إيطاليا خلال هذه الفترة كان ضعيفاً ، فأثرت بريطانيا الاحتفاظ بكامل حريتها في هذه الأصقاع ، فلما اشتد مساعد موسوليني وقويت شوكته ، استؤنفت المفاوضات بين الحكومتين ، وأسفرت عن تبادل مذكرات اعترفت فيها بريطانيا بنفوذ إيطاليا الاقتصادية في منطقة الخط الحديدي ، على شرط أن تنال بريطانيا في مقابل ذلك عقد الامتياز الخاص ببناء خزان تسانا ، وألا تعرقل إيطاليا مشروعات الإنجليز في حوض النيل . . .

وما إن أودعت هذه الوثائق في سكرتيرية عصبة الأمم ، حتى ثارت ثائرة فرنسا التي اعتبرتها خرقاً للمعاهدة الثلاثية المعقودة في ١٩٠٦ ، وطالبت بإيضاحات وتأكيدات في هذا الصدد .

أما الحبشة فقد اعتبرت هذه الاتفاقية إهانة موجهة إليها ، وجاء في احتجاجها لدى الإنجليز « إن الحكومة الحبشية ما كانت تنتظر أن يجري اتفاق على قطعة من صميم أراضيها بين دولتين أجنبيتين ! » ولم يقتصر الأمر على الاحتجاج ، بل تقدم الوصي تيفرى بشكوى إلى عصبة الأمم ، ثم أثار ضجة حول هذه الوثائق ، فاضطرت الحكومة الإنجليزية للتصهر ، وأعلن مندوبها أن المقصود من عبارة نفوذ إيطاليا الاقتصادية لا يعنى غير ضمان المنشآت الإيطالية في منطقة معينة وحمايتها من منافسة المؤسسات البريطانية .

وهكذا نجح تيفرى في استخلاص حق كاد يضيع على بلاده ، كما يدل هذا الحادث على مدى ما يمكن أن تفيد دولة صغيرة من انتمائها لعصبة الأمم ، إذا كانت مصالح الدول العظمى متضاربة فيها . ونجح تيفرى كذلك في الميدان الداخلي ، إذ تبين أنصار فيتورارى أن ابن ماكونن كان على حق حينما دفع بلاده في تيار المدنية الغربية ، فقد صارت ملء الأبصار ، ملء الأسماع ، في العالم أجمع ، ولم يحد عن جادة الصواب عندما اصطفى جماعة من المستشارين الأجانب ، وكان أربيا بعيد النظر حينما حث حكومة بلاده على الانضمام لعصبة الأمم التي نصرته على زمرة المتأمرين على المملكة .

ولم يمض عامان (١٩٢٨) حتى وفقت الدبلوماسية الإيطالية في عقد معاهدة صداقة مع الحبشة لمدة ٢٠ عاماً . كما تم الاتفاق على أن تقوم شركة حبشية إيطالية ببناء طريق للسيارات ما بين بلدة ديسيه بالحبشة

وميناء عصب الإيطالي ، وفي مقابل ذلك تمنح إيطاليا الحبشة منطقة
بحرية حرة في هذا الميناء ؛ ولا ريب أن المشروع ينطوي على مزايا
لا يستهان بها لكلا الطرفين .

واتجه الرأس تيفرى بعد ذلك إلى تقوية الجيش ، فاستدعى بعثة
عسكرية بلجيكية لتدريب الحرس الإمبراطوري لكي يكون نواة لجيش
عصري يستخدم الأسلحة الحديثة .

وفي عام ١٩٣٠ أمر تيفرى بإجراء مفاوضات لإنشاء بنك للدولة
الحبشية . وعهد في الوقت نفسه إلى إحدى المؤسسات الأمريكية دراسة
مشروع خزان يقام على بحيرة تسانا . بيد أن أزمة القطن العالمية حالت
دون مواصلة هذه الأبحاث . . .

ولم تكن الشؤون الدينية أقل حظاً من الشؤون الدنيوية في نظر
تيفرى ؛ فقد طلب تعيين مطران جديد ، والتمس من بطريرك الأقباط
زيارة الكنيسة الحبشية ، ابنة كنيسة الإسكندرية الروحية .

وعنى بعد ذلك بتنظيم استيراد الأسلحة ، فوقع مع إنجلترا وفرنسا
 وإيطاليا إتفاقية تقضى بتحريم استيراد الأسلحة على أيدي الأفراد
والهيئات الخاصة ، وأن يكون الحصول عليها بالطرق الرسمية عن طريق
الهيئات الدبلوماسية .

كل هذا كان ميسوراً لعمى الميدان الخارجي ، ولكن مثل هذه السرعة
في حسم الأمور كانت متعذراً في الميدان الداخلي ؛ وقد أدرك تيفرى
بما أوفى من فطنة أن الشعب شديد التحسك بعاداته وتقاليده التي توارثها

جيلا بعد جيل ، فليس من الممكن أن يفرض عليه الجديد دفعة واحدة ، وإذا أمكن ذلك في العاصمة فما لاشك فيه أنه سيلقى مقاومة شديدة في الأقاليم ؛ يضاف إلى كل ذلك أنه ما دامت الإمبراطورة على قيد الحياة ، والسلطة موزعة بينه وبينها ، فلن يكون صاحب الكلمة المسموعة لدى الروس ، إذن فليعتصم بالصبر إلى أن تنفث الغمة وتتحقق الآمال ... وجاء اليوم المرتقب ، فانت زارديتو في سنة ١٩٣٠ ، وتوج تيفرى إمبراطوراً على الحبشة باسم هيلاسلاسى ، فشهد حفلات التتويج جميع الأمراء وأعضاء البعثات الدبلوماسية ، كما جاء دوق جلستر نائباً عن أبيه الملك جورج الخامس ، ليقدّم فروض التهئة وينحني أمام الإمبراطور ... وهكذا أصبح هيلاسلاسى مطلق اليد في شئون بلاده ، فنذا الذى يستطيع أن يحول بينه وبين ما يبغي إجراؤه من إصلاح ؟

أجل ، إنه الآن السيد المطاع ، صاحب الأمر والنهى ، ولكنه تعلم الحرص وطول الأناة خلال الأهوام التى كان ينتظر فيها ولاية العرش ، ولن يقدم على عمل إلا متدأ ، فقد اتعظ بما جرى لأمان الله في بلاد الأفغان ، إذا أراد أن يشب بشعبه نحو الحضارة طفرة ، فكان ذلك وبالا عليه ، فخلع عن العرش ليتقضى ما بقى من حياته في المنفى .

وكان حجر الزاوية في سياسة الإمبراطور أن يوطد أركان الدولة ويبعد عنها أسباب الثورة والعصيان ، فإذا تم له ما أراد من ذلك أدخل ما شاء من النظم الغربية في أساليب حياة الشعب ؛ فكان أول ما فكر فيه ملء المناصب العليا في مختلف الأقاليم برجال من أنصاره ، فكلما خلا



الإمبراطور شيلاسي

منصب عين فيه شخصاً ممن نهلوا من ثقافة أوروبا أو عاش في ربوعها زمناً .
 وذهب هيلاسلاسي إلى أبعد من ذلك في الدستور الذي منحه للشعب
 في ١٦ يولييه ١٩٣١ ، إذ جمع الرؤوس والأمراء وأعيان البلاد ، وخطب
 فيهم قائلاً : إن الأباطرة من قبل كانوا يحكمون الحبشة حكماً مطلقاً ،
 بوصفهم آباء الشعب ، ولكن الحال تغير الآن ، فلا بد أن تضطلع
 الأمة بجانب من مهام الحكم . .

وهكذا شهدت البلاد أول مجلس نيابي لها يجتمع بين الفينة
 والفينة ليناقدش مشروعات القوانين ، وإن كان زمام السلطة الفعلية في
 قبضة النجاشي الذي ظل يعتمد على مشورة ذوى الرأي من الأجانب ،
 كما كان يعتمد على أعضاء السلك السياسي الأجانب في ملء مناصب
 القضاء ، وكان الناس من قبل يحتكمون في منازعاتهم إلى رجل البوليس أو
 إلى أى شخص يقبل المتخاصمان حكمه ، فلم يكن يرفع إلى القضاء العالى
 سوى القضايا الكبيرة . لصخامة تقدمات الدعاوى ، فإذا كان أحد طرفي
 النزاع أجنبياً ، تظرت الدعوى أمام المحكمة بحضور قنصل بلاده . . .

ومن التدابير التي اتخذها الإمبراطور خلال السنوات الأربع التي
 حكمها والتي استرعت اهتمام الدول الأجنبية ، ما يتعلق بفتح تجارة الرقيق ،
 ألغى الرق وحرر أبناء العبيد ، ومنح العبد الحرية بمجرد وفاة سيده . . .
 وأهم من ذلك تحقيقه لوحدة الإمبراطورية ، فأصبحت الحكومة
 المركزية وطيدة الأركان . تدبّر لها الأقاليم القريبة والنائية بالطاعة والولاء ،
 بعد أن تولى شئونها رجال من أولياء النجاشي الصالحين .

التراع الحبشى الإيطالى

لم تنقطع الحوادث على الحدود الحبشية الإيطالية بعقد معاهدة الصداقة بين إيطاليا والحبشة عام ١٩٢٨ ، وكان لكل حادثة تقع روايتان متناقضتان فى معظم الأحيان ، فليس فى مقدور المؤرخ المنصف أن يميز الرواية الصحيحة من الرواية الزائفة ، ومن أجل ذلك لا نستطيع القول بأن العلاقات بين البلدين قد ساءت بسبب الاختلاف فى تفسير مواد المعاهدة ، أو بسبب تتابع حوادث الحدود .

وهما يكن من أمر فقد استفحل التراع بين الطرفين بسبب طريق السيارات الذى يمتد من مقاطعة هرر إلى ميناء عصب ، وكان سبب التراع إصرار حكومة المستعمرة الإيطالية على أن الجزء الحبشى من الطريق المار عبر إريثريا إلى الحبشة ، يجب أن يستكمل على أيدى المهندسين الإيطاليين ، ولم توافق الحكومة الحبشية على ذلك حفاظاً على سيادتها ، محتجة بأن الطليان كلما منحوا امتيازاً طغوا وطالبوا بمزيد من الحقوق ، فقد كان الأمر قاصراً فى المعاهدة على الطريق بين ديسيه وميناء عصب ، وهما هم أولاء يطالبون بربط ديسيه بالعاصمة الحبشية !

واشتد الجدل وتضاربت الآراء بين الطرفين ، فأخرج الطليان من ملفاتهم القديمة تقارير عن اعتداءات على مواطنيهم ، وغارات مزعومة

على الحدود ، وهكذا عادت قصة الذئب والحمل على المسرح الدولي !
وقد كان حادث (وال وال) هو النقطة التي امتلأت بها الكأس
وقاضت ؛ وتفصيل الأمر أن لجنة إنجليزية حبشية مختلطة قامت على رأس
سفارة جندي من الأحباش لرسم الحدود بين الصومال البريطاني والأراضي
الحبشية ؛ وكان الطليان قد توغلوا من قبل في هذه المنطقة لكثرة الآبار بها
وأنشأوا فيها عدة نقاط حصينة ؛ فلما وصلت اللجنة إلى المنطقة اعترض
الطليان وأرسلوا عدة طائرات حومت فوق المكان على سبيل الإرهاب والاستفزاز ؛
فأثر أعضاء البعثة السلامة وانسحبوا من منطقة الآبار ، غير أن اللجنة
رأت أن تترك في المنطقة فصيلة من الجنود ، حتى لا تنور ثائرة أهالي
أوجادين إذ يعتقدون أن في هذا تسليحا يحقّق الطليان في الآبار والعيون ؛
وفي غمرة هذا الهياج النفسي نشبت المعركة في ٥ ديسمبر ١٩٣٤

ولو توفر حسن النية من الجانبين لانتهى الحادث بسلام ؛ ولكن
الحكومة الإيطالية أصرت على أن تقدم الحبشة اعتذاراً ، وأن ترسل فرقة حبشية
لتحية العلم الإيطالي بوال وال ، وأن تدفع غرامة قدرها ٢٠ ألف جنيه !
فرفض الأحباش هذه المطالبات جميعاً ، لأن اللجنة التي اختيرت
لتحقيق الموضوع لم تثبت مسؤولية على الحبشة ؛ ولما اقترحت أديس أبابا عرض
التزاع على هيئة تحكيم ، رفضت إيطاليا ، فرفع الأمر إلى عصبة الأمم . . .
وظلت الدعوى راكدة فلم تعرض على بساط البحث عدة أشهر ،
وكانت الدول الأوروبية تريد إرجاء النظر في النزاع أطول وقت ممكن ،
حتى تهدأ النفوس النائرة فيتسنى إيجاد تسوية سلمية ترضى الفريقين . . .

ولكن إيطاليا ظنت أن الدول الأوروبية بهذا الإرجاء تغض الطرف عن نشاطها في أفريقيا ، فبدأت بالعدوان ، إذ أرسلت إلى إريتريا عدة آلاف من ذوى القمصان السود ، وقوة كبيرة من الجيش الإيطالى . . .

ثم اتسع نطاق الاستعدادات الحربية فى إيطاليا ، وبدأت صحفها تنشر المقالات الحماسية لاستثارة حية أبناء الوطن ، وحثهم على الأخذ بثأر عدوة ! وبذلك محاولات دولية عدة ، استرضاء لإيطاليا ، فجاء ردها حاسماً فى بيان أدلى به وزير خارجية إيطاليا : مؤداه أن سياسة الحبشة وتصرفاتها تحمل فى طياتها الدليل على عداء مستحكم بين البلدين !

وبذلك كشف العلليان القناع عن رغبتهم فى الحرب مهما كانت النتائج ! واتخذ الإمبراطور مقراً لقيادته فى الصفوف الأولى ، ودارت رحى الحرب بين الأسلحة الحديثة الفتاكة وقنابل الخردل الخائفة المروعة ، ورأى النجاشى ما نزل بشعبه من هلاك ودمار . وأيقن أن استمراره فى المقاومة على هذه الصورة يشبه أن يكون حكماً بالإعدام على الشعب كله ، فآثر الانتقال إلى ميدان آخر يدافع فيه عن وطنه وحرية شعبه ، فذهب إلى جنيف ، ليمسح صوته للعالم الحر ، عسى أن ينتشل أمته من هذه المحنة ! وغادر عاصمة ملكه فى عام ١٩٣٦ ، وقلبه ملىء بالثقة فى عدالة السماء . . .

وظل خارج بلاده خمس سنوات ، إلى أن عاد إليها فى ربيع سنة ١٩٤٢ وقد اندحر أعداؤها وزهق باطلهم ، إن الباطل كان زهوقاً .

وهب نسيم الحرية من جديد على شعب ضعيف ، آمن بحقوقه واستبسل فى الدفاع عنها فأبده الله : وتلك عاقبة المؤمنين . . .

في أعقاب الحرب العالمية الثانية

حافظت الحبشة على استقلالها منذ القدم ، لأن طبيعة أراضيها الوعرة وما يتخللها من جبال عالية ووديان سحيقة ، كانت تقف سداً منيعاً دون الغزاة الفانحين .

وعلى الرغم من أن موقع الحبشة الجغرافي وحاجتها الاقتصادية كان من شأنهما أن يدفعاً حكومة أديس أبابا نحو الكتلة الغربية ، فإن ماضي بعض الدول الأوروبية علمها الحذر ، فلم تعد تأمن جانب أوروبا ، واعتمدت في بحث اقتصادياتها واستقلال مواردها إلى الولايات المتحدة ... وقد استفلت الولايات المتحدة الفرصة ، فأوفدت بعض رجالها العسكريين لتدريب الجنود الأحباش وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ، لكي تتخذ من الأراضي الأثيوبية قاعدة حرية جوية بعيدة عن ميادين القتال في الشرق الأوسط ، تستخدمها كمرکز جوى ثانوى إذا ما تعلر عليها في الحرب العالمية المنتظرة استخدام مطار الظهران بالمملكة السعودية ... وقد تخلصت الحبشة من الخطر الإيطالى الذى كان جاثماً على حدودها في الصومال وإريتريا ، بل نجحت في ضم الإقليم الأخير إليها ، وعلى الرغم من ذلك ظل سوء التناهم قائماً بين روما وأديس أبابا فحمل هذا حكومة الحبشة على التودد ليوغوسلافيا وتوثيق العلاقات معها ...



السفير الإيطالي بين يدي النجاشي، لأول مرة، بمة قطيعة دامت ١٦ سنة |

وقد نجح الأحباش كذلك في التخلص من سيطرة بريطانيا ؛
 بدعوى أن تحرير الحبشة وإجلاء إيطاليا عنها يرجع إلى كفاح بريطانيا !
 وقد توثقت عرى الصداقة بين أمريكا والحبشة على أساس الثقة
 المتبادلة ؛ وفي سبيل هذه الصداقة أرسلت الحبشة فريقاً من أبنائها
 يحاربون جنباً إلى جنب مع الأمريكيين في كوريا . . .

وفيما عدا هذه العلاقات - لا تُعرف لاثيوبيا مصالح ذات بال
 مع بقية الدول ، إلا مع مصر والسودان ، وقد تطورت علاقاتها مع
 كلا البلدين في الفترة الأخيرة . . .

وليس ثمة ما يلفت النظر في علاقات مصر بأثيوبيا إلا ما اتسمت
 به من طابع الخلل والشك تجاه مصر ، على أثر توثق العلاقات بين
 شطري وادي النيل ، وحاجة مصر إلى تنفيذ بعض المشروعات الخاصة
 بضبط مياه روافد النيل التي تجري في الأراضي الحبشية . . .

ولدبنا من الأسباب ما يحمل على التأكيد بأنه لا مبرر لارتباب
 الأحباش في نيات المصريين ، بل ليس من مصلحتهم أن تقوم العلاقات
 بين البلدين على أساس من الحبطة والخلل ، كما أن من مصلحة أثيوبيا
 أن تقوم إلى جانب حدودها دولة قوية عزيزة الجانب ، كدولة وادي
 النيل ، ليس لها مطامع استعمارية ، بل تحدها الرغبة الصادقة في
 التعاون مع أثيوبيا وتربطها بها أحسن علاقات المودة كدولتين مستقلتين . . .
 ونعود إلى العلاقات الجديدة التي تربط بين الولايات المتحدة
 وأثيوبيا ، فنقول : إن من مظاهر تدعيمها في الفترة الأخيرة ، عقد

معاهدة بين البلدين ، ودعوة الإمبراطور لزيارة الأراضي الأمريكية .
 أما المعاهدة فقد تم التصديق عليها في ٧ سبتمبر ١٩٥١ ، وتشتمل
 على تسع عشرة مادة ، تنص أولاها على أن تكون علاقات البلدين قائمة
 على أساس الصداقة الأكيدة والسلام الدائم ، وأن يعملوا في سبيل
 تحقيق أغراض هيئة الأمم المتحدة ، وأن يتبادل الطرفان المبعوثين
 السياميين بما لهم من حصانات وامتيازات وحقوق ، وأن تنشأ في أراضي
 الطرفين قنصليات يتولى شئونها مبعوثون معتمدون ، ويتمتعون بالمزايا
 والحصانات ، كما يعفون من أداء الضرائب والرسوم والعوائد على أساس
 المعاملة بالمثل .

وتنص المادة السادسة على أن تسمح حكومتا الطرفين لرعايا الدولة
 الأخرى بالإقامة في أراضيها بقصد الاشتغال بالصناعة أو ممارسة التجارة
 أو القيام بالدراسات العلمية ، فضلا عن حماية هؤلاء الرعايا وتأمين
 سلامتهم وأموالهم ومنحهم حرية إقامة الشعائر الدينية .

وتقضى المادة الثانية عشرة بأن تمنح حكومة كل من الطرفين
 المتعاقدين منتجات وحاصلات الدولة الأخرى أقصى حد من الرعاية التي
 تتمتع بها منتجات وحاصلات أية دولة أخرى ، فلا تفرض على استيرادها
 قيوداً أو رسوماً جمركية أعلى ، أو تحدد مقاديرها أو قيمتها القصوى .
 وتنص المادة الرابعة عشرة على أن تكون التجارة والملاحة حرة بين
 أراضي الطرفين ، فلا يفرض أى حظر على دخول سفينة تحمل علم
 الدولة المتعاقدة ميناء في أراضي الدولة الأخرى .

وتنقضى المادة الخامسة عشرة بأن يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن تلجأ المنشآت التي تملكها الحكومة أو تتولى الإشراف عليها في الحصول على ما يلزمها من حاجيات ، إلى مؤسسات وبيوتات الصناعة في أراضي الطرف الآخر ، مع مراعاة أسعار السوق العالمية .

وتنص المادة السادسة عشرة على أن أحكام هذه المعاهدة لا تحول دون تطبيق الإجراءات اللازمة فيما يتعلق بتنظيم صادرات وواردات الذهب والفضة ، أو المواد الإشعاعية ، أو الأسلحة والذخائر والعتاد الحربي . كما لا تمنح هذه المعاهدة أى حق في التدخل في الشؤون السياسية ، ولا تمتد إلى المزايا الخاصة التي سبق أن منحتها الولايات المتحدة الأمريكية لبعض أراضيها أو ممتلكاتها ، كجزيرة كوبا أو منطقة بناما .

وتنقضى المادة السابعة عشرة بأن أى خلاف ينشأ عن تطبيق أحكام هذه المعاهدة أو تفسيرها ، ولا تيسر تسويته بالطرق الدبلوماسية العادية ، يُعرض بناء على رغبة أحد الطرفين على محكمة العدل الدولية .

وتحل هذه المعاهدة محل الاتفاقية التجارية الموقعة بأديس أبابا من قبل في ٢٧ يونيو ١٩١٧ .

وتنص المادة الأخيرة على أن تسرى هذه المعاهدة خلال عشر سنوات قابلة للتجديد ، إلا إذا أُنذر أحد الطرفين الطرف الآخر برغبته في الفسخ قبل عام من تاريخ انتهائها .

هذا وقد وجهت الحكومة الأمريكية دعوة إلى إمبراطور الحبشة لزيارة الولايات المتحدة ، فوصل هيلاسلاسي إلى نيويورك في ٢٥ مايو

الماضي ، وأعدت له وزارة الخارجية استقبالا حافلا يليق بمكانته .
 وكان بعض الصحفيين الأمريكيين قد تقدموا بأسئلة إلى السلطات
 الأثيوبية ، فأعدت عليهم ردوداً باللغة الإنجليزية تلاها الإمبراطور على
 الصحفيين عند وصوله ، ولكن أحد الصحفيين توجه إلى هيللا سلاسي
 بسؤالين شفوئين ، أجاب جلالته من أحدهما وامتنع عن الإجابة على
 الآخر ، وكان أولهما عن استثمار رؤوس الأموال الأمريكية في الحبشة ،
 أما الثاني فكان استفساراً عما إذا كانت هناك نية في إنشاء قواعد حربية
 في الأراضي الحبشية

وقد تضمنت إجابة الإمبراطور على السؤال الأول : أن هذا الاستثمار
 يعتبر في نظره أكبر مساعدة يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة لبلاده ،
 وأضاف : إن الفرص متوفرة لهذا الاستثمار في ميادين التعدين والمواصلات
 والزراعة . . .

ولما كانت الولايات المتحدة جادة في البحث عن موارد جديدة
 لكثير من المعادن التي تحتاج إليها في صناعاتها الحربية ، لا سيما معدن
 الأورانيوم الذي وجد بكميات كبيرة في الكونغو البلجيكية وبعض المناطق
 الأفريقية الأخرى ، ولما كان معقد رجائها أن تعثر على معدن الكوبالت
 والبترو في الحبشة - فإنها لا شك ترحب بهذا العرض الحبشي ، ولن
 تألو جهداً في الوصول إلى أغراضها ما دام معين المال عندها لا ينضب ...
 ولقد أشار الإمبراطور في الخطبة التي ألقاها بالكونجرس الأمريكي
 إلى قيام بعض الشركات الأمريكية بالتنقيب عن الذهب والبحث عن

البترو في بلاده حالياً

كما أن الحكومة الأثيوبية عينت خير أمريكياً في الشؤون المالية ، فلم يلبث أن قام بتعديل نظام العملة ، فربط الدولار الحبشي بالدولار الأمريكي ، وحول بعض الصادرات التي تباع بالدولار إلى الولايات المتحدة مباشرة ، بدلا من وصولها على أيدي الوسيط من الدول الأخرى ويسود الاعتقاد بأن الإمبراطور وحاشيته قد اتهموا فرصة زيارتهم للولايات المتحدة للتعاقد مع عدة شركات أمريكية لاستغلال الموارد الطبيعية في الحبشة

ولا شك أن مسألة المواصلات لا تقل في نظر الأمريكيين عن المعادن في أهميتها ، بل قد تزيد ، لأنها ذات اتصال مباشر بالجهود الحربية الأمريكية ؛ وقد جاء على لسان الإمبراطور في الخطبة التي ألقاها بالكونغرس : أن حكومة بلاده قد تعاقدت مع إحدى الشركات الأمريكية لتنظيم شؤون الطيران المدني ، في نطاق معاهدة الصداقة والتجارة المعقودة بين البلدين والتي أوردنا بعض نصوصها فيما سبق .

ولقد أصبح للحبشة بعد ضم أريتريا (المستعمرة الإيطالية السابقة) ساحل طويل على البحر الأحمر ، ولذا اتجهت النية إلى إعداد خطوط ملاحية حبشية برؤوس أموال أمريكية ، وربما ترتب على ذلك ربط ميناء مصوع بميناء إيلات الإسرائيلي ؛ ولا شك أن حكومة تل أبيب ترحب بتنفيذ هذا المشروع الذي يتيح للتجارة اليهودية فرصة الوصول إلى القارة الأفريقية ، كما يسهل لها الحصول على المواد الخام اللازمة لصناعاتها ،



الثروة الحيوانية في الحديقة، ومن أجلها تطعم إسرائيل في حسن العشرة بالحديقة
لنفسها بما تحتاج إليه من اللحم !

دون حاجة إلى المرور بقناة السويس ، حيث تصادفها كثير من العراقيل ...
وبهذه المناسبة عرضت بعض الصحف الأمريكية لهذا المشروع ،
فنهت - يوحى من اليهود - بوجه التشابه بين مركز الحبشة ومركز
إسرائيل ، وذكرت أن الإمبراطورية الحبشية دولة مسيحية محاصرة بالبلاد
الإسلامية من كل جهة ، وأن إسرائيل تعاني مثل ذلك الوضع ؛ فلا
غرو أن يتعاون كلا البلدين بإنشاء خط ملاحى يربط بين ساحليهما ويكفيهما
شر القيود التى تفرض على التبادل التجارى بينهما ، فى الوقت الحاضر !
وقد تردد - فضلا عن ذلك - أن الحبشة قد تعقد مع الولايات
المتحدة اتفاقية تمنحها الحبشة بمقتضاها مزايا تجعل مبناء مصوع لأمريكا
شبيهاً بمبناء عدن لبريطانيا على الشاطئ المقابل لأريتريا ؛ غير أن المقامات
المسئولة فى كلا البلدين تتجنب التعرض لهذا الموضوع ، بل تنكره
تماماً ، زاعمة أنه ليس للأمريكيين أية أغراض سياسية أو حرية فى
الحبشة ، وإذا كان هناك مجال للمفاوضات بين السلطات الأمريكية
وإمبراطور الحبشة ، فإنه قاصر على موضوع محطة الإذاعة اللاسلكية
(مارينا) التى تريد الولايات المتحدة استئجارها واستغلالها لأغراض إذاعية .
هذا هو الموضوع الذى تتحاشى دوائر الحبشة الرسمية اليوم الخوض
فيه ، ولكن الشواهد تدل على أن هناك اتفاقية سرية بين البلدين ، تقضى
بمنح الولايات المتحدة بعض القواعد العسكرية فى الأراضى الحبشية ؛
وقد ورد على لسان السفير الأمريكى بأديس أبابا تأكيد بهذا المعنى ،
وقيل فى واشنطن إن المقصود به هو الاتفاقية الخاصة بمحطة مارينا

اللاسلكية ، ولكن المعتقد أن الحيشة تريد أن تلعب في أفريقيا مثل الدور الذي تقوم به تركيا في أوروبا ، فتصير بذلك دعامة الخط الدفاعي الثاني للمعسكر الغربي إذا ما شبت فيران الحرب العالمية المقبلة . . . وتدل بعض التقارير لمناسبة زيارة رئيس وزراء تركيا للولايات المتحدة ، على أن رأى العسكريين الأمريكيين متجه إلى حماية الشرق الأوسط من العدوان الروسي المرتقب ، عن طريق إنشاء مثلث دفاعي ، أركانه الباكستان وتركيا ومصر ، وربما تحول الاتجاه أخيراً إلى إحلال الحيشة محل مصر في هذا المثلث ، فإن صحت هذه المشروعات فإن الاتفاق على منح الولايات المتحدة قواعد عسكرية في الحيشة يصبح ذا أهمية حيوية بالنسبة لمصر والبلاد العربية جميعاً . . .

وقد أشار الإمبراطور في الخطاب الذي ألقاه بالكونجرس إلى أهمية بلاده الاستراتيجية ، وإلى أن سلطان النجاشي قد امتد في وقت من الأوقات إلى ساحلي البحر الأحمر ، حتى وصل إلى حدود مصر العليا ، فإذا كان لهذه الإشارة مغزى في الوقت الراهن ، فإننا لا نستطيع تفسيرها إلا بأنها إعراب عن رغبة الإمبراطور في ربط مصير بلاده بالمعسكر الغربي ، مع ما يستتبع ذلك من آثار وعواقب . . .

فإذا أضفنا إلى ذلك تكرار جلالاته الإشارة إلى الضمان الجماعي العالمي ، وقوله إن القوى البشرية في الحيشة أمر يجب أن يحسب حسابه ، وأن بلاده تتمتع بالاستقرار في منطقة عز فيها الاستقرار—فقول أن تكراره لهذه الإشارة يتطوى على تحديد ضمنى لاتجاهات السياسة الحيشية الجديدة . . .

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام مدى الصلة الروحية الوثيقة بين الكنيستين القبطية المصرية والحبشية ، وما طرأ عليها من وهن في الآونة الأخيرة ، بسبب ما نشب بينهما من خلاف ؛ والأمل وطيد في عودة المياه إلى مجاريها بين الكنيسة الأنثوية وأمها الروحية ، كنيسة الإسكندرية . ولكن أمراً له مغزاه حدث في هذه الأثناء ، فقد خلا الخطاب الذي ألقاه الإمبراطور في الكونجرس من الإشارة إلى العلاقات بين الكنيستين ، فهل لهذا الإغفال من تأويل ، إلا بأنه نزعاً من جانب الأحباش نحو التحرر من سلطان الكنيسة القبطية ، أو استجابة لمحاولات تقوم بها السلطات الأمريكية لتحويل الكنيسة الحبشية إلى المذهب البروتستانتي ! ويؤيد هذا الظن ، وبعض الظن إثم ، ما حدث في المأدبة التي أقامها السفير الأمريكي بالحبشة تكريماً للإمبراطور ودعا إليها عشرين شخصاً من بينهم تسعة من أقطاب الكنيسة البروتستانتية !

ولكن هل ينجح الأمريكيون فيما أخفق فيه كثيرون من قبل ؟ ولقد أحيطت المفاوضات التي دارت بين الإمبراطور وحاشيته وبين ممثلي المصارف الأمريكية بسياج صفيق من الكتمان ، غير أن المقامات المطلعة تؤكد أن اتفاقاً تم بين الطرفين على منح الحبشة قرضاً بمبلغ خمسمائة مليون دولار ، أو ما يقرب من مئتي مليون جنيه ، تصرف الدفعة الأولى منه وقدرها ١٠٠ مليون من الدولارات ، في سبتمبر المقبل .

وعهدنا بالأمريكيين أنهم لا ينفقون المال جزافاً ، وإنما يستهدفون في كل ما يبذلون أن يحصلوا على مزايا أعظم مما يبذلونه ، في الميدانين السياسي



فرقة من الجيش الصيني تتأهب للهروب في كوريا ، ولم يكن
في كوريا من الأفريقيين غيرهم !

والاقتصادي ، أو أن يحصلوا على نفط ارتكاز استراتيجية يعتمد عليها حين يجد الجدل وتندلع شرارة الحرب المرتقبة بين المعسكرين الشرق والغربي .

والمعتقد أن الولايات المتحدة حصلت فعلا على عدة مزايا في مختلف الميادين ، فقد علمت الدوائر الدبلوماسية الأجنبية في أثيوبيا أن من بين المشروعات التي درست وتم الاتفاق على تنفيذها ، إعداد ميناء مصروع بحيث يصبح ميناء حربياً ذا قيمة ، تحتله الولايات المتحدة بطبيعة الحال نظير ما قدمت من تسهيلات مالية واقتصادية ضخمة ، هذا إلى تهيئة ميناء عصب بحيث ينافس ميناءي عدن الإنجليزي وجيبوتي الفرنسي . . .

ولقد دارت مفاوضات من قبل مع بعض الألمان للقيام بتنفيذ المشروع الخاص بتوسيع ميناء عصب ، ولكننا نستبعد الآن أن يقوم الألمان بهذا المشروع ، بعد أن حصل الإمبراطور على هذا القرض السخي !

وتدل الشواهد على أن من بين المشروعات التي تعكف على دراستها البعثة الأمريكية في الحبشة ، مشروع إنشاء نواة لأسطول حربي وتجاري ؛ وقد بدأت تستأجر بعض البواخر وترفع علمها عليها ، كما أنشأت مدرسة بحرية في ميناء مصروع قد تبدأ الدراسة فيها خلال فصل الخريف المقبل ، وسيعهد إلى عدد من اليونانيين تدريب الطلبة الأحباش وإعدادهم لقيادة الأسطول.

وقصاري القول أن أثيوبيا مقبلة على عهد من التقدم والرخاء ، لما فيها من موارد طبيعية غزيرة ، أكثرها خطراً وأهمية ، اليورانيوم والكوبالت ، كما سبق أن قدمنا ، والذهب والبتروال اللذان تدل أعمال التنقيب على وجودهما بكميات وفيرة في الأراضي الأثيوبية ، ثم مشروعات بحيرة تسانا ...

مباحث حول بحيرة تسانا

من بحيرة تسانا العميقة في وسط الحبشة ، ينبع نهر « آباي » ، وينحدر نحو الجنوب الشرق ، ثم يدور حول الجبال ليتخذ اتجاهاً جديداً نحو الشمال الغربي ، حيث يسمى « النيل الأزرق » ثم يعضى في مجراه العميق وسط الجبال حتى يصب في النيل الأبيض عند الخرطوم ، ومنه يأبى الفيضان الذى يفد على بلادنا بالخير والبركة في منتصف الصيف من كل عام . . .

وقد أدركت بريطانيا منذ احتلت مصر والسودان ، ما للنيل الأزرق وبحيرة تسانا من أهمية في بلادنا ، لا من حيث أثره الزراعى في الجزء الواقع شمال الخرطوم من وادى النيل فحسب ، بل من حيث أثره في زراعة القطن التى تغذى مصانع لانكشير ، ولعلها لاحظت إلى جانب هذه الأهمية ، ما يمكن أن يكون لهذا النهر من أثر في إمكان اتخاذ وسيلة في بعض الظروف السياسية للضغط على مصر والسودان ، باعتباره شريان الحياة في البلاد . . .

وفي ظروف مختلفة ، منذ سنة ١٩١٩ إلى اليوم ، تردد اسم بحيرة تسانا عدة مرات على ألسنة السياسيين في مصر وبريطانيا ، وعلى أفواه الحاققين في المظاهرات السياسية لبعض المناسبات في العواصم المصرية . . .

فلما كانت سنة ١٩٥٢ ورأت بريطانيا نفسها في وضع سياسي بالنسبة لمصر يفرض عليها أن تقوم ببعض المناورات ، بدأت تذكر بحيرة تسانا مرة أخرى ؛ وكانت مصر في ذلك الوقت ، تقوم بمباحثات مع حكومة النجاشي في شئون تتصل بمياه النيل الأزرق والبحيرة التي ينبع منها ؛ ولأمر ما ، لم تجد الحكومة المصرية يومئذ من حكومة النجاشي استجابة أو إقبالا على هذه المباحثات ؛ وفي ذلك الوقت ، تقدمت الحكومة البريطانية إلى مصر تطلب أن يكون لها رأى في هذه المباحثات الجارية بين مصر والحبشة ؛ وكان طلباً غريباً حمل مصر على أن تسأل بريطانيا : وماذا يعنيك من أمر بحيرة تسانا والنيل الأزرق ، ومن المباحث التي تدور حولها بين الحكومتين الشقيقتين ؟ فكان جواب بريطانيا أنها تريد أن تشارك في هذه المباحثات لمصلحة السودان . وكان جواباً أبعد في الغرابة من الطلب نفسه ، فإن السودان لأهله لا لبريطانيا ، ومصلحته هي مصلحة مصر الشقيقة نفسها ؛ فإن جاز لأحد أن يتحدث باسم السودان غير أهله فهو مصر لا بريطانيا ، التي تفرض نفسها وصياً فضولياً فيما لا يعنينا من شئون الأمم الأخرى . . .

وقد وقفت تلك المباحثات يومئذ بين مصر والحبشة حول هذا الموضوع فلم تنته إلى نتيجة ؛ ثم دخل الموضوع في طور جديد ؛ إذ بدأت الولايات المتحدة — عن طريق مشروع المساعدات الفنية « النقطة الرابعة » — تحوم حول بحيرة تسانا ، لتبدأ دراسة من نوع معين ، تتصل بطبيعة الأرض في تلك المنطقة ، وما يمكن أن يقام فيها من

مشروعات ؛ ووصلت أول بعثة لهذا الغرض من مكتب إصلاح الأراضي بالولايات المتحدة ، إلى أديس أبابا ، في ٦ أبريل سنة ١٩٥٢ ، ولم تكن مباحث هذه البعثة قاصرة على نوع من المشروعات دون غيره في حوض النيل الأزرق وبحيرة تسانا ، بل شملت أنواعاً عدة ، من حيث طبيعة الأرض ، ومدى صلاحيتها للتوسع الزراعى ، وقوة تدفق المياه ، وإمكان توليد القوى الكهربائية ، ووسائل إنشاء مجال صناعى أمريكى تُستخدم فيه هذه القوى الكهربائية .

وقد قدمت هذه البعثة تقريرها في أصلى وملحق ، في أغسطس سنة ١٩٥٢ ، وبدأت « النقطة الرابعة » بتنفيذ بعض ما تضمنه ذلك التقرير من توصيات . . .

وكان من بين ما قرره البعثة ، ضرورة « عمل دراسات شاملة لمشروعات نهر النيل » وإعداد الاتفاقيات اللازمة لتوزيع مياهه بين مختلف البلاد التى يمر بها ؛ كما كان من بين الدراسات ، مشروع لإنشاء خزانات على روافد النيل الأزرق الواقعة بين بحيرة تسانا وحدود السودان ، للاستفادة بمياهها في القطر الحثبى نفسه . . .

ومنذ ذلك التاريخ ، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية — ومن ورائها بريطانيا — تتحدث عن ضرورة « عمل دراسات كاملة لكافة مشروعات النيل » وهى دراسة تستغرق من خمس إلى عشر سنوات قبل محاولة تنفيذ أى مشروع من مشروعات الرى في مصر والسودان ؛ وهى نعمة جديدة قد انكشفت بواعثها واتضح أهدافها الاستعمارية البعيدة . . .

واليوم إذ ترد الأنباء من غرب الأطلسي بما كان لزيارة الإمبراطور هيلاسلاسى للولايات المتحدة من آثار تتحدث عنها الصحف الأمريكية وتستمرسل في الحديث بسبيلها عن المساعدات الضخمة التي تقدمها الولايات المتحدة للحبشة ، ومنها منحة ٢٠٠ مليون جنيه — يمكن أن يتساءل الأحرار في كل قطر عربي أو أفريقي بقلق : ما ثمن كل هذه المساعدات لبلاد مثل الحبشة في وضعها الراهن ؟

وقد يكون جواب هذا السؤال قريباً جداً ، ولكنه — على أى حال — غير الجواب الذي تنتظره بريطانيا والولايات المتحدة ؛ لأن الوعي الإنساني الجديد في العالم كله ، يأبى منذ اليوم أن تباع المرافق الوطنية العامة إلى الأجانب بمال !



32101 074328624

الكتاب التالي
من مجموعة اخترنا لك
البترو
والسياسة العربية

بصدر في

أول سبتمبر ١٩٥٤

الطابع والنشر

دار المعارف بضم

ثمان النسخة

١٠٠ غول اس